إجابات حاسمة

إلى الأخت الفرنسية المسلمة

د. عبد الودود شلبي

مؤسسة الخليج العربي

دكتور عبد الودود شلبي

إجابات حاسمة إلى الأخت الفرنسية المسلمة

مؤسسة الخليج العربي

الطبعه الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧

مؤسسة الخليج العربى

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - العجوزه - القاهرة

تليفون ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦

بَدَأ الاسلامُ غَرِيباً..
وَسَيعُودغَرِيباً كَما بَدَأ..
فَطُوبَى لِلْغُرَبَاء..

مُحَمَّد رَسُولُ اللّه
«صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلّم»

أنه سيأتي عليكم من بعدي زمان .. ليس فيه شيء أخفى من الحق .. ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله .. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبْوَرَ مِنَ الكتاب إذا تلى حق تلاوته ، ولا أنفق منه اذا حرف عن مواضعه ، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر . فقد نبذ الكتابَ حملتُه ، وتناساه حفظته .

« الامام علي بن أبي طالب »

قِصَّةُ هٰذَا الْكِتَابِ

« بسم الله الرحمن الرحيم »

كتابى هذا موجه فى الأصل إلى أخت فرنسية مسلمة كانت تعيش فى مدينة القاهرة ..

غير أنى أستأذن القارىء — للتوقف قليلا — أمام قصة أخرى مشابهة جرت أحداثها بعيدا عن مصر وعن مدينة القاهرة .

أنها قصة الأخت البريطانية المسلمة مرجريت روى MARGRET ROY التى تعرفت عليها مصادفة فى مدينة « ستراتفورد — أن . أفون » .

STRATFORD ON AVONE حيث ولد شاعر الانجليز الأكبر وليام شكسبير SHEKESPAR .

كنت قد تعرفت على هذه الأخت من خلال حوار دار بينى وبين أحد القساوسة الانجيليكانيين فى مدينة ستراتفورد .. ولم تدع الأخت مرجريت هذه الفرصة تمر .. فقد احتفظت بعنوانى — حيث كنت أقيم — فى هذا الوقت بعيدا عن الوطن الأم .. وحرصت على مكاتبتى فى كل ما يعترضها من شبهات تتصل بالاسلام وموقفه من قضايا العدل والحرية فى هذا العصر .

***

لقد اختارت الأخت مرجريت الاسلام . وانقطعت أخبارها عنى منذ سبعة أعوام .. حتى فوجئت بزيارتها لى فى الأزهر قبل عام ..

***

ـــ لقد تحولت تحولا كبيرا يا أخت مرجريت ..

قلت ذلك .. بعد أن رأيتها فى زى إسلامى سابغ ، وفى سمت دينى وقور ..

***

كانت مرجريت قد تزوجت من أميركى مسلم ، ولم تنس أن تطلق على ولديها اسمين عزيزين فى قلب كل مسلمة ومسلم . لقد اختارت لولديها اسمى أحمد ومحمد ..

أهذه هى مرجريت الانجليزية ؟ خريجة جامعة كمبردج ؟ والفتاة التى انتزعت نفسها من حياة الليل فى اكسفورد ستريث OXFORD ST وماربل أرش MARBLE ARCH وأوكار الكوكايين والحشيش فى محطات الأندر جراوند THE UNDER GROUND

لم أصدق ما أرى وأسمع . لقد تداخلت فى عقلى الصور والقيم ، والواقع والمثل أمام هذه « البانوراما » الاسلامية التى أسمها مرجريت .. هذه السيدة المسلمة خريجة جامعة كمبردج .. وابنة الامبراطورية التى واجهت الاسلام ـــ على امتداد قارات الدنيا ـــ بشراسة وحقد ..

ولكنه الايمان حين يتمكن فيسمو بصاحبة عن الواقع الأليم المر .. وعن الجنس واللون ، وعن كل زينة عابرة تمنح صاحبها جاها زائفا

يذبل ويذوى مع كل لحظة من لحظات العمر .

ألم يقل مولانا « محمد على » فى محاكمة كراتشى الشهيرة ، وهو يواجه محلفين ليس بينهم مسلم .

ان القضية ليست بين محمد على والحكومة .. انها قضية الله مع البشر . والمشكل كله .. هل سيكون السلطان لله على الانسان أم للانسان على الله ؟

الله الذى وهبهم الحياة .. والشرف والعقيدة والجاه والسلطان والقوة . تلك هى عقيدتى .. فاشنقونى إن شئتم .. ولكن اعلموا أنكم بذلك تنتحرون . إذ تقتلون أرواحكم .. ستكونون أجسادا تتحرك بلا روح .. وجيفا تلقى طعاما للغربان والكلاب ..

***

قلت للأخت مرجريت مواسيا . وهى تحدثنى عن واقع المسلمين فى العالم كله .

لقد تجاوزت هذه المحنة منذ اختيارك للاسلام .. وأذكر أننى صارحتك بما تشكين منه فى هذه الأيام .. والحمد لله .. فالاسلام .. ليس دين أمة معينة ، ولا دين جنس معين .. انه دين الانسانية جميعا حيث وجدت ، وبأى لغة نطقت ، وليس فى الاسلام « كهنوت » أو « اكليروس » أو رجال دين يمسكون بأيديهم مفاتيح السماء ، أو يمنحون بركاتهم وغفرانهم لكل من يدفع الثمن من الأثرياء ، ولكل من هب ودب فوق هذه الغبراء ..

---

(١) أنظر كتابنا : حتى لا تخدع ــ فصل ــ اذا هبت ريح الايمان .

ألم يقل نبينا محمد لأحب أبنائه وبناته فاطمة : إعملى فانى لا أملك لك من الله شيئا ..

اننا جميعا أحرار فى اختيارنا وفى ايماننا يا أخت مرجريت ، وبمقتضى هذا الايمان والاختيار يتحدد موقفنا أمام الله ... كما يتحدد وضعنا ومكانتنا فى هذه الدنيا ...

صحيح .. ان الواقع الاسلامى ... اليم ... ومر ... وأحوال المسلمين تسىء ولا تسر ولكننا ـــ كما قلت ـــ مسئولون أولا عن أنفسنا .. ولو استقر هذا الايمان واليقين فى قلب كل واحد منا لأمكن تغيير الكثير مما يعوق حركة الاسلام ، ومما ينسب اليه من تهم تسىء اليه فى كل مكان .

****

لقد بدأ الاسلام غريبا ... وسيعود غريبا كما بدأ ...

ان بعض اليائسين يفسرون هذا الحديث تفسيرا يتفق مع نظرتهم المتشائمه ، أو مع شهواتهم التى اخلدوا بها الى هاوية سحيقة .. بينما يشير هذا الحديث الى ظهور الاسلام فى بيئة مشابهة للبيئة التى نشأ الاسلام فيها أول الأمر . من حيث الغربه النفسيه ، والوحشه الفكريه ومن حيث التسامى عن كل مغريات هذه الدنيا وما مثلك ومثل شقيقاتك واخوتك فى الايمان الا حجة قائمة تنطق بهذه الحقيقه .

***

واذا كان العرب والمسلمون قد انفرط عقدهم فى هذا العصر وشاهت صورتهم فى كل بلد وقطر ... فليس لانهم دون البشر كما

وصفتهم صحيفة الصن[1] ـــ The Sun ـــ ، بل لانهم تخلوا عن ايمانهم الذى مكن الله ـــ لهم ـــ به ذات يوم ... ومن يدرى ؟ فقد يمكن الله ـــ للاسلام ـــ على أيدى شعوب كانت من ألد أعدائه فوق هذه الارض ...

***

وداعا يأخت مرجريت ....

قلت ذلك ... وهى تستأذن فى الانصراف ... للحاق بالطائرة المتجهة الى لندن حيث تعيش اسرتها هناك فى حى هادىء راق اسمه « هامستد » Hampstead

لكن وداعا لأى شىء ؟

ان القضية ليست قضية مسلمين يتبادلات الرأى والنصيحة بل هى قضية حياة أو موت ـــ بالنسبة لألف مليون مسلم ومسلمة .. نكون أو لا نكون كما يقول شكسبير على لسان هملت فى مأساته الأخلاقية المعروفة ..

وهى مأساة تتكرر كل يوم مع ألف مليون من البشر يمتد وجودهم الجغرافى من أقصى الغرب على شاطىء المحيط الأطلسى .. الى أقصى الشرق على شاطىء المحيط الهندى .

وهى مأساة تتجدد ، وتتعدد .. وتختلف من بلد الى بلد .. ومن قطر إلى قطر ، ومن جماعة الى جماعة بل تكاد تعصف بكل فرد يواجه هذه التناقضات التى تراها عينه وتسمعها أذنه ..

(١) لقد وصفت صحيفة الصن الانجليزية العرب وصفا مسفا يستحى الانسان من ذكره .

فاسأل نفسك أيها المسلم .. من أنت ؟

أأنت فى مرحلة الحياة .. أم الموت .. أم الموت فى الحياة ..؟

أنشد العون من شهود ثلاثة ..

أولها : عرفانك لذاتك .. فأنظر نفسك فى نورك أنت ..

وثانيها : معرفة ذات أخرى .. فأنظر نفسك فى نور سواك ..

وثالثها : المعرفة الالهية . فأنظر نفسك فى نور الله .

فما أجمل أن يعقل الانسان ذاته .. وأن يختبر رونقها فى ضوء الشمس .. والا فذاتك لا تزيد على حلقة من دخان[1] .

***

من كان للاسلام فليضرب بمعوله الفساد
فيصيح باللص العتى كفاك من شبع وزاد
ويصيح بالفساق اياكم وأعراض العباد
ويصيح بالطاغين . أسرفتم . لكل مدى نفاد
ويصيح بالباغين . ويحكمو لقد ذهب الرقاد
ويصيح بالغاوين ويحكمو اذا حان الحصاد
وطواكمو احد المناجل بين أذرعه الشداد
ونظرتموا فإذا الظلام عليكمو حنق السواد
ريح مصر صرة الزئير كأختها فى يوم عاد
تسقيكمو من ويلها وخرابها حمم الرشاد

***

---

(١) العلامة اقبال : ديوان جاويد نامة .

من هؤلاء الصاغرون ..؟

أفهؤلاء المسلمون ؟

أبداً تكذبنى وترجمنى الحقائق والظنون[1] .

لكن .. ما قصة هذه الأخت الفرنسية التى كانت تعيش فى مصر ؟ فى مطلع هذا العام اتصل بى صديق قديم[2] ليحدثنى عن هذه السيدة .. كانت قد ارسلت إليه بطائفة من الأسئلة فحولها الى للإجابة .. غير أنى فوجئت بكتابتها باللغة الانجليزية ، وما كدت أفرغ من ترجمتها إلى اللغة العربية حتى فوجئت مفاجأة أخرى من تطابق ما تقوله الأخت الفرنسية مع ما قالته أختها الانجليزية .

لقد تجسدت مشكلة الأخت مرجريت أمام عينى للمرة الثانية .. كيف حدث هذا ؟ من المستحيل أن يكون هناك اتفاق بين فرنسية مسلمة كانت تعيش فى مدينة القاهرة ، وبين أخت مسلمة أخرى تعيش فى الولايات المتحدة ..

***

لقد تغير اتجاهى فجأة منذ هذه اللحظة .. فبدلا من الرد على أسئلة الأخت الفرنسية فى رسالة خاصة .. رأيت أن تطبع هذه الاجابة كاملة ، وأن تصدر فى كتاب يعالج هذه الظاهرة التى تفشت فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة .

***

---

(١) من قصدية « المسلمون » للشاعر محمود حسن اسماعيل .

(٢) الأستاذ محمد جزر وكيل أول وزارة شئون الأزهر .

وبعد ..

هل انتهت القصة .. ؟ كلا .. بل بدأت . فتعالوا نقرأ ما كتبته .

هذه الأخت الفرنسية ..

ــ ماذا كتبت ؟

ــ ولماذا كتبت ؟

وفيم سألت .. ؟

دكتور عبد الودود شلبى

لَمَاذَا...
هِيَ حَائِرَة ؟

أسمى (أ.ح)[1] فرنسية المولد ومسلمة وأقيم الآن بالقاهرة لقد استجبت لنداء الاسلام لأول مرة عند زيارتى لمصر عند سماعى للأذان فى موعد صلاة الظهر ، لقد شعرت حينئذ بأنه ينادينى .

وبعد بضعة أيام التقيت فى سماء مصر ومن أعلى معبد أبو سمبل بالمصرى المسلم الذى أصبح فيما بعد زوجا عزيزا لى .

لقد أعطانى الله هدية ثالثة ، إنها الأبنة الصغرى التى أنجبها زوجى من زواجه الأول والتى توفيت أمها . إن ذكاءها وحساسيتها تعلو على المستوى العادى ، لقد اشتركت فى تعليمها أولويات الاسلام عندما كنا نعيش فى فرنسا وظللت أحدثها عن الاسلام بدلا من الحديث عن القصص الأوربية العادية ، حيث أننى أؤمن بأن حياة رسولنا محمد هى قصة بالغة الروعة .

ونظرا لأننى قد حصلت على الكثير فاننى أشعر بأنه من واجبى أن أعطى أكثر فى محاولاتى مع من وضعه الله فى طريقى .

عندما أختلط بغير المسلمين ، يخيل الى أن أحسن ما أقدمه لهم هو مقدرتى على الاجابة بدقة عن اسئلتهم التى لا نهاية لها وكأننى مسلمة المولد .

أن المسلمين ، فى كثير من الأوقات يتطوعون لتعليمى تعاليم الاسلام ومع ذلك فالبعض منهم يخلط بين العادات وبين الدين أو

---

(١) ليس هذا هو الاسم بالضبط ، ولكنه اختصار للحروف الأولى منه .

يذكرون أشياء ليست ــ دائما ــ صحيحة ، لذلك فأننى فى حاجة الى تعميق معرفتى بالاسلام لكى أتبين الطريق الصحيح وأحاول اتباعه .

فى باريس كنت أدرس القرآن على يد البروفسور محمد حميد[1] الله الذى ترجم معانى القرآن الكريم الى الفرنسية وألف عدة كتب عن الإسلام .

والآن تراودنى من وقت لآخر شكوك وأسئلة لا أرى لها عندى اجابة .. وهى شكوك وأسئلة يتعرض لها الكثير أمثالى ممن لم يعمقوا ــ بعد ثقافتهم الدينية .. ، وأرى واجبا على كل عالم مسلم ومفكر مسلم أن ينهض بواجب الشرح والتوضيح لمثل هذه الأمور التى تحول بين الكثيرين ، وبين الفهم الصحيح لعقائد الاسلام .

وسأعرض فيما يلى نماذج لهذة الاسئلة والشكوك من واقع تجربتى ومعرفتى بالظروف والأسباب التى تثير مثل هذا القلق الذى ينغص علي المؤمن طمأنينته وأمنه فى بعض هذه الأحوال .

السؤال الأول :

كيف نوفق بين الاعتقاد بأن الانسان يملك إرادته الحرة فى اختيار بعض ما يؤمن به ويعتقده فى هذه الحياة ، وأن الايمان أو الكفر ، وفعل الخير أو الشر كلها نتائج لهذا الاختيار الحر من جانب الانسان .

---

(١) عالم مسلم من أصل باكستانى يعيش فى باريس .

كيف نوفق بين هذا الاعتقاد الذى يؤكد مسؤولية الانسان عن كل عمل يقع منه فى هذه الحياة وبين (اعتقاد آخر) يقرر أن كل ما يقع فى هذا الكون إنما يقع بارادة الله ..

انني أشعر بحيرة بالغة تجاه هذه القضية ، كما لا أجد جوابا عند من ناقشتهم من المسلمين حلا لهذه المشكلة ..

فكيف نوفق بين هذا التناقض ؟

وكيف يكون الانسان حرا مطلقا فى جانب ؟

بينما يبدو أسيرا مقيدا فى جانب آخر ؟

السؤال الثانى :

هناك حقيقة أخرى تقول : بأن الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

فإذا كان الله هو الذى يهدى ، والهداية منه سبحانه وتعالى وحده .. فلماذا اللوم على غير المؤمنين اذا كان الله لم يهدهم ؟

السؤال الثالث :

هل المسلم سيىء الخلق أفضل أو أسوأ من الشخص غير المسلم الحسن السلوك ؟

أنني أميل الى الشعور بالقول بأن المسلم سيء السلوك هو الأسوأ حيث أنه قد وضع فى الطريق الصحيح . وظهرت أمامه كل آيات الاستقامة . ومع ذلك فإنه شرد وجنح الى غير الحق .

السؤال الرابع :

أنا لم أقرب الخمر حتى قبل دخولى فى الإسلام وكان اعتقادى دائما بأن المشروبات الروحية هى الدعم الأدنى للتعساء .

اننى لا أتدخل عندما يتعاطى المسلمون الخمر لأننى أعتقد أن هذه مشكلة بينهم وبين الله ولكن عندما يدّعون بأن القرآن لا ينص على تحريم المشروبات الكحولية ، ويقولون بأن القرآن يحرم على المسلم أن لا يقرب الصلاة وهو مخمور ، اننى أشعر بضرورة القول بأن هذا تفسير خاطىء ، والا تعرض المسلمون للضلال .

اننى أدرك بأن الآيات التى نزلت أخيرا فى تحريم الخمر تلغى ما جاء من آيات متقدمة حول الخمر ، وبالتالى فإن الآية التى جاء فيها بأن الخمر رجس من عمل الشيطان ، هى التى لابد أن تؤخذ فى الاعتبار اننى عادة أجيب بأن لغتى العربية ليست بالقدر الذى يجعلنى أدرك معنى هذه الآية بدقة ، وأعتقد بأن الحديث الشريف تجاه شرب الخمر واضح تماما ومتمشيا مع ما جاء فى القرآن .

لا يوجد فى فكرى أدنى شك فى هذا الأمر ولكننى أيضا أود أن أكون متأكدة تماما فى تقديم الاجابة المقنعة لهؤلاء الذين يقعون فى اغراء الخمر وفى امكانهم الاقلاع عنها .

السؤال الخامس :

ان مدمنى المخدرات يتزايد عددهم يوما بعد يوم وبالتالى يعرضون صحتهم للضرر وكذلك صحة هؤلاء الذين يقعون فى حبائلهم .

ومع ذلك فإن الكثير من الناس يعتقدون بأن تعاطى المخدرات من وقت لآخر غير ضار وبالتالى فإنهم يعرضون على ذويهم وأصدقائهم المشاركة فى تعاطى هذا المخدر ...

ما السورة أو الحديث الذى يحرم تعاطى المخدرات؟

السؤال السادس :

ان التليفزيون يبدو لى كوباء ، خطورته تتساوى مع الخمر والمخدرات ولكن على المدى البعيد .

لقد لاحظت أن الناس يرغبون كثيرا فى مشاهدة الأفلام الأوربية الأمريكية عن مشاهدتهم للمحاضرات أو الأخبار العى يمكن أن تعلمهم شيئا ذا قيمة ، أو أنهم يشترون كافة أنواع شرائط الفيديو الضارة للعقول .

اننى أخشى بأن هذه الأفلام والشرائط تجلب العنف الى بلد لازالت الحياة فيه هادئة حيث أن الطرقات أكثر أمنا فيها عن البلاد الغربية ، وأعتقد أنه من المؤسف أن أرى المصريين الذين تجدهم فى أغلب الأوقات يبدون اعجابهم بأوربا ، يقلدون بعض عاداتهم السيئة مثل ارتداء الملابس الخليعة ، وشرب الخمر ومن جهة أخرى فإن مشاهدتهم للتليفزيون تمنعهم من القراءة التى نصت عليها بوضوح السورة رقم (٩٦)(١) ، وتمنعهم من ارتياد المساجد التى أقامها الناس بتوفيق من الله بدلا من مشاهدتها فى التليفزيون فقط حيث أن الانسان لا يشعر بعظمتها إلا عند تأدية الصلاة فيها .

---

(١) سورة (العلق) وهى أول ما نزل من القرآن .

انني أحاول جاهدة لإقناع ابنتنا بأن تحسن اختيار ما تشاهده فى التليفزيون ولكن هناك صعوبة كبيرة فى منعها من مشاهدة ما يعرضة التليفزيون فى منازل الأصدقاء الذين نتزاور معهم .

انني أدرك بأن صورة الإنسان أو الحيوان يحرمه القرآن ولكن القرآن لا يتعارض مع العلم ، وبالتالى فإنه يبدو لى بأن البرامج التى تزيد معرفة الناس هى التى يجب أنتاجها لكى يشاهدها المسلمون .

سوف أكون شاكرة لتوضيح هذه النقطة حيث انني أرى الكثير من الناس الذين يتصرفون تصرفا اسلاميا مازالوا يشاهدون التليفزيون بكثرة لدرجة أنهم يؤجلون الصلاة حتى ينتهى (المسلسل) .

السؤال السابع :

لقد ذكر البخاري فى حديث له :

« قال ربيع » لقد رأيت الرسول يصلى وهو يعتلى ركوبته فى الاتجاه الذى تقصده ناقته » .

هل يمكنني أن أستدل من هذا الحديث أنه يجوز أن أؤدى الصلاة بالطائرة أو بالعربة أثناء الطيران أو السير حتى لا أوجل العديد من الصلوات ؟

السؤال الثامن :

انني أدرك بأن على المسلم أن يكون رحيما بأى مخلوق حى ، والقرآن يوصى بأن تنقلُ الأحمال على الحمار ، على ما أذكر ، وقد ذكر فى الحديث قصة (هارلوت) التى أنقذت نفسها عندما نزلت

الى البئر لاحضار الماء لكلب عطشان وكذلك المرأة التى ستدخل النار لأنها قيدت قطتها وتركتها تموت جوعا .

ان القسوة ضد الحيوانات ، حقيقة تثير الألم فى نفسى وكذلك أيضا الطفل الذى يريدنى أن أجمع كل القطط الضالة من الطريق وأحضرها للمنزل لرعايتها .

هل هناك سورة أخرى أو حديث يمكننى أن أتعلمها وأن أذكرها لهؤلاء الذين يؤذون الحيوانات ؟

السؤال التاسع :

هل من خلق المسلم أن يستخدم طفلا عمره أربع سنوات ، أو خمس سنوات أو ست سنوات فى خدمته بدلا من مساعدته للذهاب الى المدرسة ؟

انى أدرك بأن الله سبحانه وتعالى يفضل (حبر) الطالب على دم الشهيد وبأن العلم يجب السعى إليه من بدء الخلق حتى القبر وأن يطلب ولو فى الصين .

السؤال العاشر :

ما هى قيمة الوعود فى الإسلام ، هل يستقيم الاخلال بها دون الاساءة الى الله ؟

هل التسبب فى ضياع الوقت يمر دون عقاب (الوقت المخصص لك) وبخاصة فى الجلوس طوال اليوم فى حين أن الواجبات قد أهملت ومصالح الآخرين قد تعطلت ؟

أليس الوقت هو جوهر الحياة ؟

السؤال الحادى عشر :

لقد عرف الإسلام بأنه أنظف الأديان فى العالم ، فلا بد للمرء من تأدية الصلاة خمس مرات يوميا ولا يمكنه تأديتها دون الوضوء وكذلك تأدية الصلاة بملابس نظيفة .

انني أدرك أنه لا يمكن الجمع بين الاسلام والمسلمين ، ومع ذلك فأنني أصدم عندما أذهب للصلاة بالمسجد وأجد السجاجيد فى غاية من القذارة .

فى العام الماضى ذهبنا فى زيارة الى جبل سيناء ووجدنا هناك مسجدا صغيرا استخدمه السائحون الألمان كمكان للراحة يأكلون فيه شرائح الخنزير ويشربون البيرة فلم يسعنا إلا أن نقوم بنظافته وترفع زجاجات البيرة وما تبقى من طعامهم .

انني أرفق قصاصة من مراسل صحيفة « لى موند » ، الذى أبدى فيها الصحفى دهشته من الضوضاء ، قائلا : « أليس هذا تلوثا » . وأخيرا وليس آخرا ، لقد شاهدت عند سفح جبل النور القريب من مكة ــ صفحات من القرآن الكريم مبعثرة على الأرض ، وقريب منها جيفة شاه وعندما قام زوجى بالتقاط هذه الصفحات من القرآن ، كان هناك مواطن يقف بالقرب منا ، لقد قال موضحا أنه ليس لديهم حاليا يمنيون « أليس من واجب كل مسلم أن يعمل على أن تكون الأماكن المقدسة وأماكن العبادة وما حولها على الأقل نظيفة ؟

أليس نحن الذين نعرض للخطر احتمالات دخول الناس فى الاسلام إذا كان سلوكنا عكس ما هو مطلوب منا ، وعكس ما يطالبنا به الإسلام ؟

السؤال الثانى عشر :

(أ) هل الشيطان يمكن رؤيته من الناس ، أعنى على الأرض ؟ اننى أفكر فى حالة مارتن لوثر .

(ب) أين أرواح الموتى الذين ينتظرون يوم القيامة ؟

(جـ) هل كل غير المسلمين مصيرهم النار ، أم هم هؤلاء الذين ولدوا بعد ظهور الإسلام من الذين جاءهم الدليل وتنكروا له ؟

(د) هل حقيقة أن هؤلاء الذين كتبت عليهم النار سيظلون بها دواما ، أو أنهم سيظلون بها لوقت يكفى للتكفير عن خطاياهم كمكان للعبور ينتهى بوصولهم الى الجنة ؟

ان القرآن يذكر خالدين فيها أبدا » ولكن أليس فى قدرة الله أن يقرر شيئا آخر فى نهاية المطاف ؟

***

الواقع الإسلامي ...
في قفص الاتهام ...

إذا كانت نبوءة المفكر البريطانى « برنارد شو » عن إنتشار الإسلام فى المائة عام القادمة ــ بحيث تجد الحضارة الغربية نفسها مضطرة الى معايشته وتقبله ــ على نحو ما هو واقع اليوم فى بعض أقطار هذه الحضارة .. أقول :

أنه بالرغم من عدم تحقق هذه النبوءة بحيث تصبح تيارا عقديا يهز أركان هذه الحضارة ورموزها الفكرية . إلا أنه من الممكن القول بأن مرد هذه الظاهرة يرجع فى أسبابه وعوامله الى المسلمين أنفسهم .. حيث تركوا هذا للمصادفة البحتة ، وللرغبة الشخصية ولانبهار بعض المفكرين بقيم هذا الدين وعقيدته ومُثُله ...

والطريق أمام الإسلام لا يزال مفتوحا على قارات العالم كله من اليابان فى أقصى الشرق الى أميركا فى أقصى الغرب ، بالرغم من محاولات المؤسسات التقليدية ــ المعروفة بعدائها للإسلام ــ فى الوقوف أمام تياره المتدفق ، والحيلولة بينه وبين الملايين الباحثة عن الحقيقة والحق ..

غير أنه لا يمكن اغفال الدور الذى تقوم به هذه المؤسسات « التقليدية » فى الوقوف أمام مد الإسلام الزاحف .

كما لا يمكن أغفال عجز المؤسسات الإسلامية وتقصيرها فى هذا المجال الذى هو (جهاد اليوم) على كل مفكر وعالم .

لقد فتحت اليابان ــ بعد الحرب العالمية الثانية ــ أبوابها أمام الأديان المعروفة فى العالم ، وكانت اليابان قد فعلت ذلك فى مطلع هذا القرن فى محاولة لنبذ « وثنيتها » القديمة التى لم تعد تلائم حركة الحياة والعلم فى عصرنا الحاضر .. وقد سافر الى اليابان عام ١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٦ م الشيخ على الجرجانى صاحب جريدة « الارشاد » التى كانت تصدر أنذاك فى « مصر المحروسة » ، ومكث هناك ستة أشهر أسلم فيها على يدية أثنا عشر ألف يابانى ويابانية .

ومنذ هذه الرحلة التى قام بها « الشيخ على » لم يقم داعية بمثل هذا العمل ، ولم تلتفت أية دولة مسلمة أو أية منظمة اسلامية الى الاهتمام بهذه الدولة التى تحتل مكانتها فى مقدمة الدول ، ولا تزال الدعوة الإسلامية فى اليابان تمضى الهوينى فى وجه أعاصير التبشير ، وحملات الكراهية والسخط ضد الإسلام والمسلمين ، ولا يزال عدد المسلمين فى اليابان متواضعا الى هذا اليوم .. ولا يزال عدد المساجد قليلا لا يتجاوز أصابع اليد . بالرغم من جهود جمعية « مسلمى اليابان » التى أسسها بعض طلبة اليابان من خريجى الأزهر ، وبالرغم من الحركة النشطة التى يقودها المركز الإسلامى اليابانى بقيادة الدكتور أبو بكر .

***

وفى ــ كوريا الجنوبية ــ حذا المسئولون .. حذو اليابان .. فى اعلان « كوريا الجنوبية » بلدا مفتوحا أمام كل الأديان ، وقد عرف الكوريون الإسلام عن طريق الكتيبة التركية التى أنضمت إلى قوات الأمم المتحدة للحفاظ على السلام والأمن فى هذه الدولة ــ بعد

الحرب العالمية الثانية ــ لقد لفت الجنود الأتراك نظر الكوريين وهم يولون وجوههم شطر الكعبة وهم يرفعون أصواتهم بالآذان فى سماء كوريا ، وهم يتوضأون قبل كل صلاة ويتحرون فى كل حركاتهم الطهارة والنظافة . وقد دخل فى الإسلام منذ ذلك اليوم بضعة ألوف قليلة ، ولا تزال هذه الألوف فى دائرة هذه الأرقام بالرغم من مضى حوالى أربعين عاما على قيام الجنود الأتراك بهذه المهمة ، وبالرغم من وجود بعض المساجد وقيام مركز إسلامى فى « سيول » العاصمة .

لقد تلقيت دعوة للسفر إلى كوريا الجنوبية فى عام ١٩٧٧ م ودعيت إلى بيت سفيرها ــ قبل السفر ــ الى حفل عشاء فى بيته ، ولا أنسى ما قاله السفير لى فى هذا الحفل وهذه المقابلة :

لقد ذكر السفير أن بلاده ترحب بدعاة الاسلام ، وأتمنى أن يكون لهم السبق فى هذا المجال . فنحن الكوريين ــ والكلام للسفير ــ ليس عندنا حساسية من هذا الدين . بخلاف غيره من الأديان التى اقترنت دائما بالغزو والجيوش والأساطيل ..

ولكن المسلمين كعادتهم غفلوا أو تغافلوا .. وكانت النتيجة خسارة كبرى للإسلام فى مجال هو مجاله وفى أرض هى « جغرافيا » أرضه ، وفى شعب هو ــ مهما قيل ــ شعب شرق كشعبه .

لقد تكررت مأساة « المنبوذين فى الهند » حين كتب زعماؤهم إلى الأزهر منذ خمسين عاما يطلبون منه انقاذهم من وهدة الطبقية ، ومن ذل العبودية .

لقد ذهب وفد من الأزهر برئاسة أحد كبار علمائه وهو المرحوم

الشيخ ابراهيم الجبالى ولكن تقريره بقى أملا وحلما تنعيه الأيام والليالى ...

***

فإذا اتجهنا بأبصارنا من الشرق الأقصى فى كوريا واليابان إلى الغرب الأقصى فى أوربا وأميركا حيث يسيطر القلق والخوف فى كل مكان فلسوف نجد ونرى :

أن عدد المهووسين والملتاثين ومدمنى الأفيون والهيروين فى أوربا وأميركا يهدد بكارثة ، وأن مقدار ما أنفق فى العام الماضى على المخدرات وحبوب الهلوسة تجاوز سبعة عشر ألف مليون من الدولارات ، وقد ظهرت الأمراض المستعصية ، والعلل القاتلة فى جسم هذه الحضارة التى توشك على السقوط والانهيار ..

وكما يقول المرحوم العلامة الدكتور محمد اقبال : أن أوربا تفلس ، والروح تموت عطشا فى سرابها الخادع .. فيها حضارة ؟ .. نعم .. ولكنها حضارة تحتضر وان لم تمت حتف أنفها فلسوف تنتحر غدا وتذهب . فأساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة . لقد ذهبت هذه الحضارة تبحث عن الروح فى المعدة . تفعل هذا الرأسمالية كما تفعل هذا الشيوعية . ان هذه وتلك تعيشان على الشره والنهامة وخداع الإنسانية . فالشيوعية تقضى على الدين . والرأسمالية تقضى على الروح . وكلاهما موت للإنسان الذى استخلفه الله فى هذه الأرض .

***

ان هذا الذى قاله العلامة الدكتور محمد اقبال ـــ قبل خمسين عاما ـــ قاله المفكر الفرنسى المسلم العلامة جارودى .

فقد وقف يقول فى محاضرة له فى مدينة باريس منذ شهور « اننا بعد خمسة قرون من سيادة الغرب سيادة تامة ـــ بدون منازع ـــ يمكن تلخيص نتائج حضارته فيما يلى :

- على الصعيد الاجتماعى : لقد صرف للتسلح على سطح هذه الكرة الأرضية عام ١٩٨٢ م مبلغ ٦٥٠ مليار دولار ، ولو وزع هذا المبلغ على أفراد البشرية لأصاب الفرد الواحد (٤) أطنان من المتفجرات ، وفى نفس تلك السنة توفى فى العالم الثالث خمسون مليونا بسبب الجوع أو سوء التغذية .

ومن الصعب أن نسمى خط سير الحضارة الغربية ، وتوصلها الى امكانية تدمير الحياة على سطح الأرض وإنهاء ثلاثة ملايين سنة من تاريخ البشر ، لا يمكن أن نسمى ذلك بحال من الأحوال تقدما .

- أما على المستوى الاقتصادى ، الذى توجهه فكرة النمو والزيادة ، فهم يطلبون زيادة الانتاج سواء أكان مفيدا أو ضارا أو حتى مميتا .

- وبالنسبة للنواحى السياسية والعلاقات الداخلية والخارجية بين الدول ، فالعنف هو الذى يسيرها ، أى مصالح الأشخاص والطبقات والشعوب التى تتصارع فيها صراعا رهيبا .

- وتتميز النواحى الثقافية بفقدان المعنى والمغزى لهذه الحياة ، فهم يريدون أن يكون الفن للفن ، والعلم للعلم ، والاختصاص لمجرد

الاختصاص وأن تكون الحياة فى سبيل لا شيء .

- أما عن العقيدة فقد أضاعوا معنى السيطرة العلوية الالهية ، وبذلك تم اغفال البعد الحقيقى للإنسان فى إنسانيته ، وتعذر امكان الفصل بين النظام والفوضى الموجودة .

***

ومن العجيب والمؤسف معا .. أن بوادر سقوط الحضارة الغربية وانهيارها كانت معروفة قبل وفاة مفكر الإسلام وشاعره الأكبر العلامة اقبال ، ومن العجب أيضا أن كثيرا من الغربيين أنفسهم قد كتبوا يحللون أسباب هذا السقوط والأنهيار بالابتعاد عن العقيدة والإيمان ، وأن مؤسسات الغرب الروحية فقدت تأثيرها الذى كان معروفا فى غابر الأزمان وكان البحث عن دين يلائم التطور ويخاطب إنسان العصر بلغة بعيدة عن الغموض والتخلف هو الحل الأمثل لإنقاذ هذه الحضارة من مصيرها الأسود ومن نهايتها التى ستدمر كل شيء فوق هذا الكوكب ، وكان اسلام اللورد الانجليزى « هيدلى » فى مطلع هذا القرن اعلانا عن هوية هذا الدين المرتقب ، ودعوة إلى الإيمان به وفهمه من غير كراهية ولا تعصب .

ولكننا تركنا المجال خاليا أمامل المشعوذين والدجاجلة وتخلينا عن دورنا التاريخى فى هذه المرحلة الانسانية الفاصلة .

وكان من أمر ذلك ترك المجال واسعا أمام رجل اسمه المهاريشى ، وآخر اسمه هارى كريشنا ، وثالث أسمه « ص مون » ، وكان من أمر ذلك أيضا استفحال وباء البهائية والقاديانيه ، وغيرهما من الدعوات المشبوهة والمارقة .

وقد ساعد على ذلك كله . تشرذم مقيت ، وتعصب مذهبى بغيض ، وفقدان القائد المسلم المخلص ، وإنعدام الرأى الإسلامى المتفق ، وغياب المركز الإسلامى المؤثر وكلها آفات يجب أن نتخلص منها ، وأمراض لابد من علاجها والقضاء عليها .

ومن الانصاف أن نسجل لجماعة (التبليغ) جهدها المشكور فى هذا الحقل ودورها المخلص فى هذا المجال . فحيثما وليت وجهك الى أى بلد .. فى الشرق أو فى الغرب لمست أثر هؤلاء الدعاة فى اخلاصهم وتجردهم الى الله .

ولم تفت الفرصة . بل لا تزال فى بدايتها رغم هذه العقبات العارضة ، أقول هذا عن تجربة ، وعن احتكاك بشعوب الغرب وطبقاته المثقفة الواعية . وفيما نشرته صفحة الأهرام الدينية ــ قبل شهر ــ عن اسلام نائب رئيس محكمة العمل الدولية . آية وشاهد على هذه القضية . فالاسلام كما يقول « رجاء جارودى » هو الحل لمشكلات أوربا الراهنة .. وهو سفينة النجاة لشعوبها الحائرة القلقة وهو طريق النجاة لها فى هذه المحنة ، وفى هذه الكارثة .

المهم أن نعرف كيف نبدأ . وأن نحسن اختيار الدعاة قبل أن نبدأ ، وأن نعيد النظر فى أسلوبنا الذى ثبت فشله وفى المنظمات والمراكز الإسلامية التى لا يتجاوز عملها نطاق الوظيفة والمكتب ، وأن يتفق المسلمون على خطة موحدة بعيدة عن الهوى المغرض ، وعن الخلافات السياسية التى تحجب عن الضمائر والقلوب سنى الاسلام الباهر المشرق ، والتى تحول بين الإسلام وانتشاره فى المغرب أو المشرق .

وعلى الأزهر أن يعيد النظر فى كثير من خططه ، ومن مناهجه ، ليبقى كما يتمنى المسلمون منارة علم ومعرفة وعلم نور وهداية .

***

ولكن ... أين دعاتنا فى الشرق أو الغرب ؟ أين مبعوثونا .. أين الدعاة منا ؟ يقول الدكتور عبد الحليم محمود[1] « لا شىء من ذلك مطلقا . ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ومبعوثى الأزهر إلى الأقطار الخارجية : إنما بعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية فى مدارس اسلامية ابتدائية أو اعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، وإذا كان الدين الاسلامى ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية . رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التى تعترض طريقه .

ولنقارن ذلك كله بالارساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها : المستشفيات والملاجىء ، والمدارس والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ؛ ولنتصور كفتى ميزان احداهما لا شىء فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للإسلام والأخرى فيها كل شىء وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وكثيرا ما قال جمال الدين : أن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء — مستكينين ، فرقت بينهم الأهواء والشهوات وقعدت

---

(١) مجلة الأزهر — رجب ١٣٩٨ هـ .

بهم الصغائر وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستذلين ، ولو كان الإسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا ..

ينظر الغربيون الى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين : ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام ، وتكاد الصلة التى بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون الى دينهم صافيا نقيا . ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قويا ساميا .

وآداب الإسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس ، ولكن المسلمين أبتعدوا كل البعد عن الإسلام .

ولنتخذ مثلا بسيطا ، مسألة النظافة .. لقد دعا الإسلام الى النظافة دعوة لم يدعها دين من الأديان ، ولم يدعها مذهب من المذاهب قديما أو حديثا ، ولكن اذا نظرنا إلى الأقاليم ، الإسلامية أو إلى الأحياء الإسلامية ، وقارناها بالأقاليم أو الأحياء الأخرى . نجد الفرق واضحا ، سواء كنا فى مصر ، أم فى تونس ، أم فى مراكش ، أم فى غير ذلك من البلدان .

ولنأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الأمم الإسلامية .

فقد دعا إليها الإسلام فى صور لا حصر لها ، وبأساليب لا حد لتنوعها مهددا متوعدا تارة . مرغبا محببا تارة أخرى ، متحدثا عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك

صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وخذ آداب الإسلام واحدا فواحدا وأنظر إلى حال المسلمين .

هل تجد توافقا وانسجاما بين المسلمين والإسلام .

يقول جمال الدين :

« إذا أردنا أن ندعو للإسلام ، فليكن أول ما نبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين .؟!

وسبب آخر لعدم انتشار الإسلام آت من المسلمين أنفسهم ..

منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الإسلام فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة .. ولكن إذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لا ينتهى بين الذين يبحثون فيه . بالزيغ ، وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهى .

ثم هى تصور — على الخصوص — المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولا تمت بصلة إلى الأبحاث الحديثه . ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها ألفت فى العصور الماضية . وما ألف منها على نمطها اتباعا للآباء والأجداد ، وبغضا للخروج عن المألوف .

وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير ؟

لقد انتهى تفسير القرآن الى أن أصبح مسرحا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحي على الهداية لما أنزل الكتاب من أجله أى الهداية للأقوام .

***

ان عَرْضنا الدين الإسلامي على هذا النمط من العرض . جعل كتبنا لا يتيسر فهمها للأجانب عنا . ولو لم يكن في الإسلام تلك القوة الذاتية التي تستولى على القلوب وتغمر الأفئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم .. الإسلام أذن بحاجة الى عرضة عرضا سهلا ميسرا قويا ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير ..

***

ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص ، وظن هؤلاء — إلا من رحم ربك — أن الأمة خلقت لهم ، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاءون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى اذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيرة .

وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء ، المتقلبون فى نعمائهم ، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم ، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة .

ولقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم عوج الأمراء ، وكانوا فى الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر ، يسيطرون على الأمة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، وهكذا كانت تستقيم الأمور لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع ، متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضى . فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الأمة بهم ، إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والإسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا إثمه فى رقاب هؤلاء العلماء[1] .

***

يقول مقاتل بن سليمان :

دخلت على « حماد بن سلمة » فإذا ليس فى البيت إلا حصير وهو جالس وفى يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه — أى كتبه — ومطهرة يتوضأ منها . فبينا أنا جالس إذ دق الباب فقال : يا حبيبة

---

(١) لماذا تأخر المسلمون — شكيب أرسلان صـ ٤٣ .

أخرجى فانظرى من هذا ؟ فقالت رسول محمد بن سليمان (أى الحاكم) . فأذن له فدخل .

فقال : أما بعد : فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها . فقال : يا حبيبة هلم الدواة ، ثم قال لى : اقلب الكتاب واكتب : أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، أنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا ، فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك ، وأن أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح الا نفسى والسلام .؟!

فبينما أنا جالس اذ دق الباب . فقال : يا حبيبة أخرجى فانظرى من هذا؟ قالت : محمد بن سليمان (أى الحاكم)

قال : قولى له : يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه .

ثم ابتدأ فقال : مالى إذا نظرت إليك امتلأت رعبا ؟.

قال حماد : حدثنى ثابت البنانى قال : سمعت أنسا يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء .. وإذا أراد أن يكنز الكنوز هاب من كل شيء ..؟!!

***

ويرى الإمام الغزالى ــ أن التبعة الكبرى فى هذا الفساد الشامل ، والضعف فى الدين ، والانحلال فى الأخلاق ــ تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الاول فى فساد هذه الأوضاع ، لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يصلحه ؟

ثم يذكر الامام الغزالى كيف مرضت القلوب ، وأشتدت الغفلة عن المعاد ويذكر من أسباب ذلك مرض العلماء واعتلالهم وهم الأطباء ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد أستولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاج نفسه ، فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأقبل على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات ، وباطنها عادات ومراءات .. وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء ، والعلماء السوء لقل فساد الملوك ..

***

عندما وقعت الحرب بين مصر الحبشة فى عهد الخديوى اسماعيل أشار عليه بعض رجال حاشيته ، أن يجمع علماء الأزهر على قراءة البخارى طوال أيام هذه الحرب ، حتى يضمن لجيشه النصر .

ورصد الخديوى لهذه المهمة ألوف الجنيهات ينفق منها على العلماء والقراء المتفرغين لهذا الأمر .. وانتظر الخديوى قدوم البشريات بالانتصار والفتح ، فجاء الأمر على عكس ما كان يأمل ويتوقع فى هذه الحرب . فجمع العلماء ثم صاح فيهم غاضبا : إما انكم لستم بعلماء أو أن الذى تقرؤنه ليس هو « البخارى » .

فقام من بينهم شيخ وصاح فى وجه الخديوى قائلا :

ـــ يا اسماعيل .. اننا مهما دعونا وقرأنا فلن تنتصر فى هذه الحرب .. وفوجىء الخديوى بهذا الرد .. ثم وجه بعد ذلك سؤاله الى هذا الشيخ :

ــ ولم لا أنتصر فى هذه الحرب أيها الشيخ ؟

فقال الشيخ :

ــ السبب فيك يا اسماعيل ، فقد رأيناك تظلم وتفسد فى الأرض ولم يرتفع منا صوت يقول لك : قف عند هذا الحد ، والرسول ﷺ يقول :

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم .. » .

***

وأما الآن ــ كما يقول الإمام الغزالى ــ فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على محاسبة الارذال ، فكيف بمواجهة الملوك والحكام ؟ وهذا هو الواقع الاسلامى فى كل مكان ..

أَسْئِلَة حَدِيثَة ..
فى قَضِيَّة قَدِيمَة ..

فى المجموعة الأولى من هذه الأسئلة تقول الأخت (أ ـــ ح) :

- كيف نوفق بين الاعتقاد بأن الإنسان يملك ارادته الحرة فى اختيار بعض ما يؤمن به ويعتقده فى هذه الحياة .. وأن الإيمان والكفر ، وفعل الخير أو الشر كلها نتائج لهذا الاختيار الحر من جانب الإنسان ..؟
- كيف نوفق بين هذا الاعتقاد الذى يؤكد مسئولية الإنسان عن كل عمل يقع منه فى هذه الحياة .
- وبين اعتقاد آخر يقرر : بأن كل ما يقع فى هذا الكون إنما يقع بإرادة الله ... ؟

اننى أشعر بحيرة بالغة تجاه هذا القضية .. كما لا أجد جوابا عند من ناقشتهم من المسلمين حلا لهذه المشكلة .

- فكيف نوفق بين هذا التناقض ؟ وكيف يكون الإنسان حرا مطلقا فى جانب بينما يبدو أسيرا مقيدا فى جانب آخر .. ؟

ثم .. كيف نوفق بين قول الله تعالى : « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » لأنه ما دام الله هو الذى يهدى ، والهداية منه سبحانه وتعالى وحده ..

فلماذا اللوم على غير المؤمنين إذا كان الله لم يهدهم .. ؟

***

وأقول للأخت المسلمة (أسح) :

هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية[1] وحدها ، وهى تنفذ فى الناس طوعا أو كرها ، سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا .

فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف ، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أو قبح ، والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو أنكماش ، والزمان الذى تولدين فيه وتحيين به ، والبيئة التى تنشئين فى ظلها ، والوالدان اللذان تنحدرين منهما ، وما تتركة الوارثة فى دمك من غرائز وميول : والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، ذلك ومثله ، لا يد للإنسان فيه .

فأصابع القدر وحدها هى التى تتحرك ظاهرة وباطنة ، لتوجه الحياة كما يريد صاحب الحياة .

« إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم[2] .

وغنى عن البيان ، أن شيئا من هذا ليس محل مؤاخذة ولا موضع حساب لأن هذا شىء من الخصائص التى لا قبل لنا بها ، ولا سبيل لنا اليها وفى هذا يقول الله عز وجل :

---

(١) عقيدة المسلم : الشيخ محمد الغزالى ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) آل عمران : ٦ .

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون »[1] .

والإيمان بهذا النوع من القدر واجب ، والأدلة[2] عليه واضحة ظاهرة .

***

أما القسم الثانى من القضاء والقدر ، فيتعلق بأعمال عكس الأولى .

ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا ، وحركة ميولنا ، ورقابة ضمائرنا . فما مدى صلتنا بها ؟ وما معنى نسبة القدر إليها ؟

---

(١) القصص : ٦٨ : ٧٠ .

(٢) جاء فى العهد القديم :

« هو يفعل ما يشاء . ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل » دا : ٤ ــ ٣٥ .

كما ورد فى سفر أيوب القول « قد علمت أنك تستطيع كل شىء ولا يعسر عليك أمر » .

كما جاء أيضا : معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله : أ ع : ١٥ ــ ١٨ وهذا معناه أنه سبحانه وتعالى حال كونه أزليا فقد أحاط بكل شىء علما أى أن علمه بالعالم لم ينشأ عن وجود العالم بل كان لديه أزلا قبل وجود هذا العالم وإلى أن ينتهى ، فعلمه لما يقع فى ملكه لا حدود له مكانا وزمانا ، ولذلك كان من أسماء الله التى وردت فى العهد القديم اسم « المصور » وقد ورد هذا الاسم لتأكيد أنه سبحانه وتعالى مصور الكائنات خارجها وداخلها وهذا يعنى أن لديه صورة حاضرة ومستمرة لجميع خلقه منذ وجدوا وإلى أن يموتوا .. »

اعتمدنا فى نقل هذه النصوص على ما كتبه القس صموئيل مشرقى فى كتابه القضاء والقدر ، وهذا الكتاب لا يخرج فى تصوره عن الاعتقاد العام حول هذه القضية .

الأمر سهل جدا .. أما لماذا ؟ فاليك البيان :

« .. اننا نحس باستقلال أرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع فى هذه الدنيا .. »

ويكفينا دليلا على ذلك قول الله سبحانه :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[1] .

« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل[2] » .

بل ان طبيعة الدين ــ وهى التكليف والإبتلاء ــ لا تتحقق ألبته مع استعباد الإرادة وتقييدها .

وليس هنا موضع سرد الآيات لذلك . فالقرآن كله شواهد بينات ودلائل واضحات .

لكن .. ما موقف العلم الالهى إذن من هذا النوع من أعمال الناس ؟ هو الإحاطة التامة والشمول الكامل :

« علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى »[3] .

ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهى المحيط الشامل ؟

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) يونس : ١٠٨ .

(٣) طه : ٥٢ .

والجواب سهل :

قفى أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابسة مقطبة الجبين فماذا ترين ؟ سترين صورتك كما هى عابسة مقطبة .

أى ذنب للمرآة فى ذلك ؟ أن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهى قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحكة الوجة لأثبتت لك على صفحتها خيالا ضاحكا لا شك فيه .

وكذلك العلم الإلهى لا يتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح ، فهى تتبع العمل ولا يتبعها العمل .

غاية ما يمتاز به العلم ، أنه لا يكشف الحاضر فقط ولكنه يكشف كذلك الماضى والمستقبل .

فيرى الأشياء على ما كانت عليه ، وعلى ما ستكون عليه ، كما يراها وهى كائنة ، سواء بسواء ..

***

بقى بعد ذلك تفسير ما قررناه من شمول الإرادة العليا ، ومن هيمنة القدرة العليا على الخلائق كافة ، فما معنى ذلك وكيف يتفق مع حرية الإرادة الإنسانية ؟؟

يقول الله عز وجل :

« يضل من يشاء ويهدى من يشاء »[1] .

---

(١) فاطر : ٨ .

ان الجواب عن ذلك سهل أيضا ، ولن نذهب فى بيانه إلى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[١] » ؟

ونحن نجد أن إطلاق المشيئة فى آية ، تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنسانى صريحا .

أى أن أضلال الله لشخص ، معناه : أن هذا الشخص آثر الغىَّ على الرشاد ، فأقره الله على مراده ، وتمم له ما يبغى لنفسه .

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين »[٢] .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم »[٣] .

فهل بقى غموض فى اطلاق المشيئة ؟ لا .

ان معنى قوله « يضل من يشاء » لا يعدو قوله :

« وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه[٤] .

***

---

(١) القمر : ١٧ .
(٢) الصف : ٥ .
(٣) النساء : ١١٥ .
(٤) البقرة : ٢٦ ، ٢٧ .

وكذلك الحال فى « يهدى من يشاء » .

انظرى إلى قيمة الإرادة الإنسانية فى قول الحق وهو يتكلم عن إرادته :

« قل ان الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[١] .

فهو يهدى إليه من أناب « أن الله لا يهدى القوم الفاسقين » .

احملى هذا المصباح بين يديك ، وسيرى فى نوره بين شتى السور فلن تجدى فى دين الله قلقا أو اضطرابا .

وإنما القلق والأضطراب فى عقول الحمقى ، وقلوب الغافلين .

وهنا قد يسأل بعض الناس عن حدود الإرادة الدنيا والعليا فى الأعمال ومع أن هذا السؤال لا مبرر له فنحن نتبرع بالإجابة عنه حتى يظهر السر فى نسبة الهداية والاضلال ، تارة لله ، وتارة للإنسان .

هل تعرفين ما يفعله الفلاح فى حقله ، انه يلقى البذر ويتعهده بالسقى ، وعلى الله الأنبات والإثمار :

تستطيعين أن تسمى الفلاح زارعا ــ وأنت صادقة ــ لقيامه بالسبب . وتستطيعين أن تسمى الحق سبحانة زارعا لقيامه بالعمل .

« أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء

---

(١) الرعد : ٢٧ ، ٢٨ .

لجعلناه حطاما »(١) .

فما للإنسان فى سعيه مثل ما للفلاح فى زرعه .

فازرعى عمرك — ان شئت خيرا فإن يد القدرة سوف تنميه لك وردا يانعا . أو ازرعيه — ان شئت — شرا فإن يد القدرة تنميه شوكا رائعا .

« وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(٢) .

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ أن تتبعون إلا الظن وأن أنتم الا تخرصون »(٣) .

وأنظرى كيف يرفض القرآن هذه المكابرة الآثمة ، إذ لا يلتفت للرد عليها حتى لا يكون نقاشها نوعا من الاعتراف بها .

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »(٤) .

وما أثر هذا البلاغ المبين عند الله وعند الناس ؟ أنه أثر يقطع دابر المحتجين .

---

(١) الواقعة : ٦٣ — ٦٥ .
(٢) التوبة : ١٠٥ .
(٣) الأنعام : ١٤٨ .
(٤) النحل : ٣٥ .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما »[1] .

.. ان هذا ما ينبغى أن نفهمه من القدر ، وما ينبغى فهمه فى التفرقة بين القضاء والقدر ، والاختيار الحر لجميع البشر .

***

لقد دخل رسول الله يوما على الامام على كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء ، فوجده قد بكر بالنوم ، فقال له[2] .

« هلا قمت من الليل ؟ فقال : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله ، ان شاء بسطها ، وان شاء قبضها ، فغضب رسول الله ﷺ ، وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

وسرق أحد اللصوص ، فلما حضر بين يدى عمر رضى الله عنه ، سأله لم سرقت ؟ فقال قدر الله ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه اضربوه ثلاثين سوطا ، ثم اقطعوا يده ، فقيل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله .؟!

ان القدر لا يتخذ سبيلا الى التواكل ، ولا ذريعة الى المعاصى ، ولا طريقا إلى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتخذ سبيلا الى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال . ان القدر يدفع بالقدر ، فيدفع

---

(١) النساء : ١٦٥ .

(٢) العقائد الإسلامية : الشيخ السيد سابق ص ٩٧ وما بعدها .

قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الرى وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما حينما فر من الطاعون : أتفر من قدر الله ، قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله . أى يفر من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلا بالأرض الجدباء ، والأرض الخصبة ، وأنه إذا أنتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها ابله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر .

لقد كان يمكن للرسول وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنون ، معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذى يتعلل به الفاشلون ، ولكنه جاء يكشف عن وجه الصواب فلم يهن ، ولم يضعف ، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ، ملتزما سنة الله فى نصره لعباده .

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصى بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل .

وقد حذر رسول الله ﷺ من أن يفهم القدر فهما خاطئا ، ودعا الى مجاهدة من يرى هذا الفهم الخطأ .

هذا هو القَدْرُ الذى ينبغى أن نعرفه عن القَدَر وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه ولا التنازع فى شأنه ، فإن هذا من أسرار الله التى لا تحيط بها العقول ، ولا تدركها الأفكار .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى أحمر وجهه ، وقال : أبهذ أرسلت اليكم ؟ إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه » .

وفى هذا يقول « على » رضى الله عنه لمن سأله فى مثل هذا : طريق مظلم لا تسلكه ، كرر عليه السؤال فقال : بحر عميق لا تمجه ، كرر عليه السؤال فقال : سر الله قد خفى عليك فلا تفشه .. ، فمثل هذا النهى إنما ينصب على السؤال عن نظام الله فى الحياة والموت . وبسط الرزق وضيقه وهكذا ، لا على الكلام فى القدر نفسه .

وبعد : فالقول بكون الإنسان مجبرا لا مختارا قول باسقاط[1] كل تبعة وكل مزية ، وجراءة على التسوية بين الخبيث والطيب . وهو أمر يتناقض مع العلم اليقينى ، ويناف البدهيات الأولية ، ويعجبنى قول من قال : كيف تزعم أنك جبرى مع أنك تجرى لاحضار الطبيب لمريضك ، وتدافع عن وطنك ، وتستدعى رجال المطافىء لإطفاء حريق بيتك ، وتعمل على وقف النار التى بدأت تشب من شرارة أصابت أوراقك فى حجرة عملك ، وأن لديك عقلا وأنك لتنتفع به فيما تريد ، ولا سبيل إلى إنكار ذلك .

وقد رأيت بعضهم يشبه الإنسان فى هذهِ الحياة براكب فى سفينة قضى عليه أن يركبها وأن يسير فيها ، فليس مختارا فى ركوبها ولا فى

(١) فتاوى الشيخ الدجوى ص ١١١ وما بعدها ــ الجزء الأول ــ ط : الأزهر .

السير فيها ، ولا هو طليق يذهب حيث شاء ويسير حيث أراد ، ولكن له مع ذلك حرية تامة فيما يفعله فى تلك الدائرة المحدودة ، فيتصرف فى شئونه الخاصة كما يشاء : يذهب ويجيء فيها كما يريد ، بشرط ألا يتعدى مقدم السفينة . ولعل هذا معنى قول سلفنا الصالح :

« لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين .

ثم اننا نرى أن الأفعال كلها قد أسندت إلى العباد فى كتاب الله تعالى ، ولذلك كلفوا ، وما كان الله يكلفهم ما هو خارج عن استطاعتهم . وتمناول قدرتهم (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها[1]) فقد منحك الله القدرة والإرادة فجعلك قادرا مريدا ، ولو شاء لجعلك عاجزا مقهورا ، ثم وَكَلَ اليك تصريف تلك الإرادة بمحض اختيارك إلى أحد الجانبين من الخير أو الشر ، والترجيح شأن من شئون الإرادة الذاتية ، والتصرف أمر اعتبارى يرجع اليك وحدك الفصل فيه .

والخلاصة : أن الله تعالى قبل أن يخلقك يعلم أنك ستكون مريدا مختارا لأنك إنسان لا جماد ، « بل الحيوان الأعجم له إرادة واختيار أيضا .

ويعلم بالضرورة ما تختارة بمحض إرادتك وما ستصرف إليه من خير أو شر ، وقد أقتضت حكمته أن يهبك تلك الإرادة الحرة التى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

تصرفها كما تشاء كي يحقق لك الحرية التي أقتضت حكمته أن يمنحك اياها ، ثم يجازيك بعد ذلك على ما كان منك فى يوم عصيب تؤدى فيه الحساب عن كل ما كسبت يداك ، ولولا ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ، ولا للتكليف والثواب والعقاب .

ولسنا ننكر أنه لو شاء لسلبك تلك الإرادة ، ولو أراد لجعلك آلة صماء لا إرادة لك ، ولا تكليف عليك ، ولكنه لم يفعل لأنه يريد أن يجعلك انسانا ، فأى جبر يقتضيه القضاء بعد ذلك ؟

وقد سأل الإمام عليا — كرم الله وجهه — شيخ بعد انصرافه من صفين فقال : أخبرنى عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال : « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا ولا علونا تلعة[1] إلا بقضاء الله وقدرة » فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائى ما أرى لى من الأمر شيئا ، فقال له : « مه أيها الشيخ عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا فى شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين » فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟ قال : ويحك لعلك ظننت قضاء مجبرا وقدرا قاسرا ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبادة الأوثان ، وجنود الشياطين ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن

---

(١) المكان المرتفع الذى ينحدر منه الماء .

الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا ، وكلف يسرا ، لم يعص مغلوبا ، ولم يطع مستكرها ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض ، وما بينهما باطلا (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار[1]) .

وقال الإمام الرضا : ان الله هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادا ، وان ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وان لم يحل وفعلوا فليس هو الذى أدخلهم فيه .

ولو فتحنا هذا الباب لوجب ألا توجد هذه المخلوقات ولا تظهر تلك المبدعات ، فقد كان للجاهل بناء على هذا أن يقول : لم جعلتنى جاهلا ؟ وللناقص فى أى شىء أن يقول : لم خلقتنى ناقصا ؟ بل كان للحمار مثلا أن يقول : لم لم تخلقنى حصانا ؟ وللحصان أن يقول : لم لم تخلقنى انسانا ؟ وللانسان أن يقول : لم لم تخلقنى ملكا ؟ وللأرض بلسان حالها أن تقول : لم لم تخلقنى سماء ؟ وللسماء أن تقول : لم لم تخلقنى عرشا ؟ الخ الخ .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن[2]) .

***

(١) سورة ص الآية ٢١٧ .

(٢) سورة المؤمنون من الآية ٧١ .

يقول سير أ . س . بودلي[1] .

فى عام ١٩١٨ وليت ظهرى للعالم الذى عرفته طيلة حياتى ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب ، فى الصحراء ، وقضيت هناك سبعة أعوام ، أتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدى زيهم ، وآكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناما ، وأنام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقت فى دراسة الإسلام ، حتى اننى ألفت كتابا عن محمد « ﷺ » عنوانه « الرسول » وقد كانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة ..

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق . فهم بوصفهم مسلمين ، يؤمنون بالقضاء القدر ، وقد ساعدهم هذه الايمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة مأخذا سهلا هينا .. فهم لا يتعجلون أمرا ، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقا على أمر ، يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) . وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثه مكتوفى الأيدى ، كلا ؟

ودعنى أضرب لك مثلا لما أعنيه : هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ، ورمت بها وادى « الرون » فى فرنسا .. وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ،

---

(١) نقلا عن كتاب « كيف أرى الله .. » .

وأحسست من فرط القيظ كأننى مدفوع الى الجنون ولكن العرب لم يشكوا اطلاقا ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة « قضاء مكتوب » .

لكنهم ما أن مرت العاصفة ، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير ، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يؤدى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء ، فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : (لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ، ولكن حمدا لله وشكرا ، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد) .

وثمة حادثة أخرى . فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر أحد الإطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار احتياطى ، وتولانى الغضب ، وانتابنى القلق والهم ، وسألت صحبى من الأعراب (ماذا عسى أن نفعل ؟) فذكرونى بأن الاندفاع الى الغضب لن يجدى فتيلا ، بل هو خليق أن يدفع الإنسان الى الطيش والحمق ، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاث اطارات ليس إلا ، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير ، وعلمت أن البنزين قد نفذ . وهنالك أيضا لم تثر ثائرة أحد من رفاق الأعراب ، ولا فارقهم هدؤهم ، بل مضوا يذرعون الطريق سيرا على الأقدام ، وهم يترنمون بالغناء ..

لقد اقنعتنى الأعوام السبعة ، التى قضيتها فى الصحراء بين الأعراب الرحل ، أن الملتاثين ، ومرضى النفوس ، والسكيرين ، الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا . ما هم إلا ضحايا المدينة التى تتخذ

السرعة أساسا لها ..

انني لم أعان شيئا من القلق قط ، وأنا أعيش في الصحراء بل هنالك في جنة الله ، وجدت السكينة ، والقناعة ، والرضا ، وكثيرون من الناس يهزؤن بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر ..

ولكن من يدري ؟ فلعل الأعراب أصابوا كبد الحقيقة فأني اذ أعود بذاكرتي الى الوراء .. وأستعرض حياتي أرى جليا أنها كانت تتشكل في فترات متباعدة تبعا لحوادث تطرأ عليها ، ولم تكن قط في الحسبان ، أو مما أستطيع له دفعا ، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم (قدر) أو « قسمة » أو (قضاء الله) ، وسمه أنت ما شئت .

وخلاصة القول انني بعد سبعة عشر عاما على مغادرتي الصحراء ، مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والأمتثال والسكينة ، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف السكنات ، والعقاقير ...

***

انه الإيمان ينبوع السعادة .. ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

صدق الله العظيم

الإجَـابَة الخَطَرَة ...

تقول الأخت المسلمة (أ ـــ ح)

هل المسلم سيء الخلق .. أفضل .. أم أسوأ من الشخص ـــ غير المسلم ـــ الحسن الخلق ؟

انني (أي هي) تميل إلى ـــ أن غير المسلم ـــ الحسن الخلق أفضل من المسلم السيء الخلق ..

***

وأقول للأخت المسلمة :

لقد دخلنا في « العميق » .... وهو مثل شعبي في مصر يعني السباحة في البحر الى المنطقة الخطرة . حيث يواجه الإنسان الموت غرقا ، أو يواجه الحيتان وأسماك القرش ، التي تفترسة افتراسا ، أو تذهب به الى هاوية سحيقة لا يخرج منها أبدا ..!

ولست أدري ؟ لماذا خطر ببالي هذا « المثل الشعبي » حين بدأت الإجابة على هذا السؤال ؟

ولكني أعتقد أن هذه المصادفة القدرية لا تبعد كثيرا عن الاجابة المطلوبة عن السؤال . ذلك .. لأن سوء لخلق .. والموت . سيان ... !

وكما يقول شاعر مصر الكبير أحمد شوقي

ألا أنما الأمم الأخلاق ما بقيت .·. فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

***

لو طبقنا أو استرشدنا بهذا المعنى الذى أورده الشاعر فى هذا البيت . فى تتبع أسباب قيام الحضارات أو انهيارها لوجدنا ذلك صحيحا مائة فى المائة . ينطبق هذا على الحضارات القديمة كلها .. فى الهند .. وفى الصين وفى فارس ، وفى روما وفى بغداد ودمشق والأندلس والقاهرة ، وفى الحضارة الأوروبية اليوم .

ولماذا أستشهد بقول شاعر بينما يقرر القرآن ذلك بصراحة :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول . فدمرناها تدميرا[1] .

وقد قرئت هذه الآية بلفظ (أمَّرنا) بدلا من (أمَرْنا) ، ويعنى ذلك أنه حين يتولى أمور الناس الفسقة والطغاة والفجرة ينتهى شأن هؤلاء الناس وتذهب ريحهم من هذه الدنيا ..

***

ألم أقل لك أيتها الأخت أننا قد توغلنا فى المنطقة « الخطرة » من البحر ؟

ولكن ما الحيلة إذا كان هذا هو الواقع والحقيقة ؟

***

وقبل أن تجرفنا التيارات والعواصف بعيدا عن « الاجابة » .. أو عن (الهدف والغاية) من هذه الاجابة .. تعالى معى أولا . نقرأ ما يقوله الله لنبيه ، وما يقوله النبى لأمته عن الأخلاق وأهميتها فى قيام الحضارة وتربية الأمم والشعوب على الخير والحق والفضيلة :

---

(١) سورة الاسراء : ١٦ .

لقد كان من أبلغ ما وصف الله به نبيه قوله له : « وانك لعلى خلق عظيم »[1] ... هذا الخلق العظيم الذى عرف به النبى — قبل مبعثه — هو الذى جعل مشركى مكة مرغمين على الاعتراف بصدقه وأمانته ، وجعل من أبى سفيان رغم ما كان بينه وبين النبى من عداوة .. يعترف بطهره ونقائه ، وجعل من « هرقل » شاهد حق على صدق نبوته ورسالته .

وهذه هى مؤهلات النجاح فى أية دعوة أو رسالة . فالتطابق بين القول والعمل ، والارتباط بين السلوك والفكر ، والامتثال والتوافق بين الظاهر والباطن هو الذى فتح للمسلمين أفاق العالم .. فتح لهم القلوب قبل أن تفتح المدن ، وفتح لهم الطرق والمعاقل قبل أن يتحرك الجيش .

وهل يخطر ببالك أن شعبا مسيحيا هو شعب (حمص) فى سوريا ، يطلب من جيش أجنبى (هو الجيش الاسلامى بقيادة أبى عبيدة بن الجراح) .. يطلب من الجيش الإسلامى ألا يخرج من المدينة خوفا من قدوم جيش مسيحى (هو جيش الرومان ؟ ..

ولكن هذا ما حدث .. أما لماذا ؟ فكما يقول المؤرخ المسيحى — توماس أرنولد — على لسان أهل حمص :

« ... أنتم أيها المسلمون أحب الينا من الروم — وان كانوا على ديننا — أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » .

ثم يقول : سير توماس أرنولد بعد ذلك : ا ن أهل حمص غلقوا أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل[2] .

---

(١) سورة القلم .

(٢) الدعوة الى الإسلام — سير توماس أرنولد — ص ٧٣ — ط القاهرة — ١٩٧٠ .

وقد حدد رسول الله الغاية الأولى من بعثته ، والمنهاج المبين فى دعوته فقال : « إنما لأتم مكارم الأخلاق[1] » .

فكأن الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة ، وبذل صاحبها جهدا كبيرا فى مد شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم . حتى يسعوا إليها على هدى وبصيرة ..

والعبادات التى شرعت فى الإسلام وأعتبرت أركانا فى الإيمان به ليست طقوسا مبهمة من النوع الذى يربط الإنسان بالغيوب المجهولة ، ويكلفة بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها بل هى تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة ، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق ، مهما تغيرت أمامه الظروف ..

والقرآن الكريم والسنة المطهرة ، يكشفان — بوضوح — عن هذه الحقائق .

● فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من أقامتها ، فقال :

« وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[2] »

فالإبعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل ، هو حقيقة الصلاة ، وقد جاء فى حديث يروية النبى عن ربه : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب[3] » .

---

(١) مالك .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) البزاز . — خلق المسلم — محمد الغزالى — ص ٥ وما بعدها .

● والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب ، بل هى — أولا — غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد التعارف والألفة بين شتى الطبقات .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[1] .

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى[2] .

● وكذلك شرع الإسلام الصوم لنفس الغرض والغاية يقول الرسول « ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه[3] ..

وقال : « ليس الصيام من الأكل والشرب . إنما الصيام من اللغو والرفث .. فإن سابك أحد . أو جهل عليك . فقل : انى صائم[4] .

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله :

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[5] » .

● وكذلك يمكن أن نقول عن فريضة الحج :

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب[6] » .

***

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة .

(٣) البخارى .

(٤) ابن خزيمة .

(٥) البقرة ١٨٣ .

(٦) البقرة : ١٩٧ .

هذا عرض مجمل لبعض العبادات التى أشتهر بها الإسلام ، عرفت على أنها أركانه الأصيلة . نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق .

إنها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها ، ولكنها ،تلتقى عند الغاية التى رسمها الرسول « ﷺ » فى قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوى يلد الخلق القوى حتما . وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان ، أو فقدانه ، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته .

فالرجل الصفيق الوجه ، المعوج السلوك ، الذى يقترف الرذائل غير آبه لأحد . يقول رسول الإسلام فى وصف حاله : « الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر[1] » .

والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء ، يحكم الدين عليه حكما قاسيا ، فيقول فيه الرسول « ﷺ » : والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقة[2] » ..

ونجد الرسول « ﷺ » عندما يعلم أتباعه الأعراض عن اللغو . ومجانبة الثرثرة والهذر — يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت[3] » .

وهكذا يمضى فى غرس الفضائل حتى تؤتى ثمارها . معتمدا على صدق الإيمان وكماله[4] .. »

---

(١) الحاكم والطبرانى .
(٢) البخارى .
(٣) البخارى .
(٤) المصدر السابق .

« على أن بعض المنتسبين إلى الدين . قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة ، ويظهرون فى المجتمع العام بالحرص على اقامتها وهم ــ فى الوقت نفسه ــ يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق .

ان نبى الإسلام توعد هؤلاء الخالطين : وحذر أمته منهم .

وفى هذا ورد عن النبى « ﷺ » أن رجلا قال له : يا رسول الله .. أن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها ؟ فقال : « هى فى النار » ثم قال : يا رسول الله .. فلانه تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق « بالأثوار من الأقط » بالقطع من الجبن ــ ولا تؤذى جيرانها . قال « هى فى الجنة[1] » .

فى هذه الاجابة تقدير لقيمة الخلق العالى . وفيها ــ كذلك ــ تنويه بأن الصدقة عبادة اجتماعية . يتعدى نفعها الى الغير ، ولذلك لم يفترض التقلل منها كما افترض التقلل من الصلاة والصيام ، وهى عبادات شخصية فى ظاهرها .

ان رسول الإسلام لم يكتف باجابة على سؤال عارض ، فى الإبانة عن ارتباط الخلق بالإيمان الحق . وارتباطه بالعبادة الصحيحة ، وجعله أساس الصلاح فى الدنيا والنجاة فى الأخرى .

أن أمر الخلق أهم من ذلك ، ولابد من إرشاد متصل ، ونصائح متتابعة ليرسخ فى الأفئدة والأفكار أن الإيمان والصلاح والأخلاق ، عناصر متلازمة متماسكة ، لا يستطيع أحد تمزيق عراها .

---

(١) أحمد .

لقد سأل أصحابه يوما « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار[1] .

ذلك هو المفلس : أنه كتاجر يملك فى محله بضائع بألف ، وعليه ديون قدرها ألفان ، كيف يعد هذا المسكين غنيا ؟

والمتدين الذى يباشر العبادات ، ويبقى بعدها بادى الشر ، كالح الوجه ، قريب العدوان ، كيف يحسب أمرءا تقيا ؟

***

فإذا نمت الرذائل فى النفس ، وفشا ضررها ، وتفاقم خطرها ، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه : وأصبح ادعاؤه للإيمان زورا وكذبا .

وتقريرا لهذه المبادىء الواضحة فى صلة الإيمان بالخلق القويم ، يقول النبى الكريم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وان صام وصلى وحج واعتمر ، وقال انى مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلق ، واذا أؤتمن خان[2] »

---

(١) مسلم .

(٢) مسلم .

وقال فى رواية أخرى : « أية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، وان صلى وصام وزعم أنه مسلم » ..

وقال كذلك : أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر[1] » .

***

ومن المعروف بداهة .. أن الإسلام يتكون من شعبتين رئيسيتين :

أولاهما وأهمهما :

العقيدة وهى الإيمان القلبى الصادق الذى لا يعتريه شك ولا ريبة .

وثانيهما :

الشريعة ، وهى الجانب العملى والتطبيقى لشرائع ــ الإسلام وأدابه وأحكامه فى هذه الدنيا .

أن العقيدة شعور داخلى فى القلب لا يعلمه إلا الله وحده .. ومن ثم .. فلسوف يتحدد موقف الإنسان يوم القيامة أمام الله حسب هذا الاعتقاد وهذا الإيمان .

أما الشريعة أو الأحكام والآداب والفرائض والواجبات فهى أعمال ظاهرية يعرفها الناس ، ويحكمون على صاحبها بالإسلام ،

(١) البخارى . انتهى من كتاب خلق المسلم .

ويعامل معاملة المسلمين طبقا لالتزامه بهذه الشعائر والواجبات .

ان الحكم على ما فى القلب متروك أمره الى الله .. ولقد كان من أكبر الأحزاب التى تصدت للدعوة ، وحاربتها بشراسة وقسوة « حزب المنافقين » ورئيسه عبد الله أبن أبى سلول .. وبالرغم من معرفة الرسول بحقيقة هؤلاء المنافقين واطلاعه على ما يدبرون ويخططون .. إلا أنه عاملهم بالظاهر من أقوالهم وأفعالهم . فما داموا يصلون « ظاهرا » ..، ويصومون ظاهرا وينطقون بالشهادتين علنا . فقد أجرى النبى عليهم أحكام الإسلام ولم يتخذ منهم موقفا عدائيا .. بل ترك الحكم عليهم لله الذى فضحهم و كشفهم فى أماكن كثيرة من القرآن الكريم .

وما دامت الأعمال الظاهرة هى التى يحكم بها على صاحبها فى هذه الدنيا فانه .. وطبقا لهذه القاعدة .. التى فسرتها الأحاديث النبوية السابقة وفى ضوء هذه الحقائق والقيم الخالدة يمكن أن نقول بصراحة :

أن غير المسلم الحسن الخلق .. أفضل من المسلم السيء الخلق فى هذه الدنيا أما فى الآخرة فالحساب هناك إنما يتم تطبقا للإيمان بالله الواحد الأحد والإيمان برسالة النبى الخاتم محمد « ﷺ » .

وكما أن المسلم الحق مطالب بالعدل مع نفسه .. فكذلك هو مطالب بالعدل بالنسبة لغيره .. سواء أكان هذا الغير من المسلمين أو غير المسلمين .

والعدل الإلهى .. لا يحابى أحدا على حساب أحد ، والقوانين

الإسلامية لا تقف أحكامها عند حد معين . بل ان الله سبحانه يطالبنا بهذا العدل حتى مع أعدائنا وخصومنا « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى[1] » بل أن القرآن نزل لتبرئة رجل غير مسلم اتهم ظلما من رجل مسلم ، وفى سورة النساء التفاصيل الكاملة لهذه القصة[2] .

***

وليس من العدل فى هذه الدنيا أن يستوى الخبيث والطيب ، والعادل والظالم ، والقتيل والقاتل ، والبار والفاجر ، وليس من العدل أن تقول للمسىء : أحسنت . أو تقول للمحسن لقد صبأت وكفرت ..

فالأحكام فى هذه الدنيا تجرى طبقا لهذه الأعمال الظاهرة فمن أحسن قيل له أحسنت ، ومن أساء قيل له أسأت .

وسواء بعد ذلك أن يكون هذا المحسن أو المسىء مسلما أو غير مسلم .

بعد انتصار المسلمين فى احدى الغزوات جىء الى النبى بالأسرى ، وكانت من بينهم سفانة بنت حاتم الطائى الذى به يضرب المثل فى الجود والكرم ..

فلما عرف النبى ذلك أمر باحضارها .. فلما مثلت بين يديه أطلق سراحها وأكرمها .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

ثم قال لها : لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه .

فلما تعجب أصحابه من هذه المعاملة لامرأة محاربة تقف فى صفوف أعدائه قال لهم :

أن اباها كان يحب مكارم الأخلاق ..

***

فى هذه القصة نجد للنبى ﷺ . موقفين .. أو حكمين : أما الحكم الأول أو الموقف الأول فيتصل بالسلوك الشخصى لوالد هذه الفتاة فى هذه الدنيا .. حيث كان أبوها جوادا وكريما .

فقد أثنى النبى على هذا الرجل ـــ غير المسلم ـــ ، وأطلق سراح ابنته من الأسر اكراما لخلقه وسيرته الحسنة التى كان عليها فى حياته .

أما الحكم الثانى أو الموقف الثانى فيتصل بالآخرة وبالإيمان والعقيدة ، وبالثواب والعقاب يوم القيامة حيث قال النبى : لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه .

***

ان فساد الأخلاق من أعظم ما ابتلى به المسلمون فى هذا العصر . وهى كارثة كبرى مالم يتدارك الحكام ، والعلماء ويقوموا بحق الله فى التوجيه والنصح . لقد كان من أهم الوظائف فى الحكومة الإسلامية وظيفة « المحتسب » وهى وظيفة تمنح صاحبها حق التدخل بالإرشاد والنصح ، وتطبيق أحكام الدين والشرع ، والضرب على أيدى الفساد والشر ، وهى وظيفة كان يؤديها رجال وهبوا أنفسهم للذود والدفاع عن الحق والفضيلة والعدل .

ماذا بقى بعد ذلك لأقوله أيتها الأخت ...؟

أقول ما قاله النبى « ﷺ » أن « الدين المعاملة »

***

وقد أسلم عالم فرنسى عن طريق القراءة ، وأعجبه الإسلام فآمن به واعتنقه ، ثم رأى بعد ذلك أن يزور الشرق ليسعد برؤية الإسلام فى بلاده التى كان لها شرف الجهاد والسبق .

لقد هاله ما سمع وما رأى .. ؟

أحقا هؤلاء هم المسلمون الذى فتح الله لأجدادهم ثلاثة أرباع هذه الدنيا ؟ لقد عاد الرجل مسرعا الى فرنسا ، وحين سئل عن سبب عودته قال حزينا ومتأسفا ..

الحمد لله .. الذى جعلنى مسلما قبل أن أرى هؤلاء المسلمين .. اسما .. وقولا .. لا عملا ... !!

لقد سئل أمام عظيم من أئمة الإسلام هو تقى الدين بن تيميه : أى الدولتين أحق بالبقاء والاستمرار وعلو الشأن والكلمة ..

ــ العادلة الكافرة .. ؟

ــ أم المسلمة الظالمة .. ؟

فأجاب الإمام العظيم على الفور .

العادلة الكافرة ...

***

ألم أقل ــ أيتها الأخت ــ أن هذه هى الاجابة الخطرة ... ؟!

الخَمَراشِيُّونَ .. التُّعَسَاء

● لقد ابتكرنا هذا الاسم « الخمراشيون » ليكون شاملا لمدمنى الحشيش والخمر

وتقول الأخت (أ ــ ح) :

• أنا لم أقرب الخمر .. حتى قبل دخولى فى الإسلام ، وكان اعتقادى دائما بأن المشروبات الروحية هى الدعم الأدنى للتعساء .. كما أننى لا أتدخل عندما يتعاطى المسلمون الخمر .. لأننى أعتقد أن هذه مشكلة بينهم وبين الله .

ولكن عندما يدّعون بأن القرآن لا ينص على تحريم الخمر ، ويقولون بأن القرآن ينص فقط على ألا يقرب المسلم الصلاة وهو مخمور . فأننى أعتقد بأن تفسيرهم هذا خاطىء وفاسد . وإلا تعرض المسلمون للضلال . كما أننى أدرك بأن الآيات التى نزلت أخيرا فى تحريم الخمر تلغى ما جاء فى آيات متقدمة حول الخمر .. وبالتالى فإن الآية التى تصف الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان هى التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار .

كما أعتقد بأن الحديث الشريف الذى ينهى عن الخمر واضح تماما ومتمشيا مع ما جاء به القرآن .

انه لا يوجد عندى أدنى شك فى تحريم الخمر ، ولكن أود أن أكون متأكدة تماما من أدلتى عندما أدعو هؤلاء الذين يقعون فى اغراء الخمر .

• أما بالنسبة للمخدرات فإن عدد الذين يتعاطونها يتزايدون يوما بعد يوم .. ومع ذلك فإن الكثير من الناس يعتقد بأن تعاطى

المخدر من وقت لآخر — غير ضار ، وبالتالى فإنهم يعرضون على ذويهم وأصدقائهم المشاركة فى تعاطى المخدر .

ما السورة أو الحديث الذى يحرم تعاطى المخدرات .؟

***

وأقول للأخت العزيزة المسلمة :

ان هذا المنطق الذى يلجأ إليه السكارى والمدمنون فى تبرير خطيئتهم أصبح مبتذلا وممجوجا ومرفوضا . فهؤلاء التعساء — كما تسميهم — يعرفون أنهم على خطأ وأن مكابرتهم وأصرارهم على هذه الجريمة لا يعنى سوى الهروب من الحقيقة التى لا يختلف حولها من الناس أحد ..

فالحرام بين .. والحلال بين .. والقطة العجماء تعرف هذا الفرق بين الحلال والحرام وتتصرف مع الناس بمقتضى هذا الفهم ...

أنها أى القطة تتمسح بجسم الإنسان عندما يعطيها قطعة من اللحم ، وتقف بجواره لتأكل ما قدم إليها فى طمأنينة ونهم ، ولكن هذه القطة عندما تخطف شيئا فإنها تهرب به بعيدا حتى لا يضربها أحد ..

أفيكون السكارى والمدمنون أقل فطنة من هذه القطة ؟ وهل مسخت الحقائق إلى هذا المستوى الذى يهبط بالسكير أو المدمن إلى هذا الدرك من الهوان والغفلة ؟

لقد تعاملت مع طائفة من هؤلاء فى إحدى البلاد العربية ، وكم

آلمنى أن أعرف رجلا كان يشرب من الخمر ما يعادل عشرة آلاف دولار كل شهر .. لقد انتقل إلى ربه على أية حال ، ولكن منطقة بقى إلى يومنا هذا على لسان هؤلاء التعساء الذين لا يزالون صرعى هذا الداء الوبيل الذى اسمه « الحشيش » أو الخمر ...

وبحق ما قاله أحد الباحثين(١) :

ان الإنسان لم يصب بضربة أشد من ضربة الخمر ، ولو عمل احصاء عام عمن فى مستشفيات العالم من المصابين بالجنون والأمراض العضالة بسبب الخمر ، وعمن يشكو فى العالم من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر ، وعمن أورد نفسه موارد الأفلاس بسبب الخمر ، وعمن تجرد من أملاكه بيعا أو غشا بسبب الخمر .. لو عمل احصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حدا هائلا نجد كل نصح بازائه صغيرا .

وقد كان العرب فى جاهليتهم مولعين بشربها والمنادمة عليها ، ظهر ذلك فى لغتهم فجعلوا لها نحوا من مائة اسم ، وفى شعرهم فوصفوها وأقداحها ومجالسها وأنواعها .

فلما جاء الإسلام أخذهم بمنهج تربوى حكيم ، فتدرج معهم فى تحريمها ، فمنعهم أولا من الصلاة وهم سكارى ، ثم بين لهم أن أثمها أكبر من نفعها ، ثم أنزل سبحانه الآية الجامعة القاطعة فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع

---

(١) نقلا عن الحلال والحرام — يوسف القرضاوى ص ٦٩ وما بعدها .

بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟) .

سورة المائدة الآيتين : ٩٠ ، ٩١ .

وفى هاتين الآيتين أكد الله تحريم الخمر والميسر – القمار – تأكيدا بليغا إذ قرنهما بالأنصاب والأزلام ، وجعلهما رجسا – وهى كلمة لا تطلق فى القرآن إلا على ما اشتد فحشه وقبحه . وجعلهما من عمل الشيطان ، وإنما عمله الفحشاء والمنكر . وطلب اجتنابهما وجعل هذا الاجتناب سبيلا إلى الفلاح . وذكر من أضرارهما الاجتماعية ، تقطيع الصلات وإيقاع العداوة والبغضاء ومن أضرارهما الروحية الصد عن الواجبات الدينية من ذكر الله والصلاة . ثم طلب الانتهاء عنهما بأبلغ عبارة (فهل أنتم منتهون) .

وكان جواب المؤمنين على هذا البيان الحاسم قد انتهينا يارب ، قد انتهينا يارب .

وصنع المؤمنون العجب بعد نزول هذه الآية ، فكان الرجل فى يده الكأس قد شرب منها بعضا وبقى بعض فحين تبلغه الآية ينزع الكأس من فيه ويفرغها على التراب .

وقد آمن كثير من الحكومات بأضرار الخمر على الأفراد والأسر والأوطان ، ومنهم من حاولوا أن يمنعوها بقوة القانون والسلطان – كأمريكا – ففشلوا ، على حين نجح الإسلام وحده فى محاربتها والقضاء عليها .

وقد اختلف رجال الكنيسة فى موقف المسيحية من الخمر ، واستندوا الى أن فى الانجيل نصا يقول : قليل من الخمر يصلح المعدة . ولو صح هذا الكلام وكان قليل الخمر يصلح المعدة حقا لوجب الامتناع عن هذا القليل ، لأن قليل الخمر إنما يجر إلى كثيرها والكأس الأولى تغرى بأخرى وأخرى حتى الأدمان .

هذا على حين كان موقف الاسلام صريحا صارما من الخمر وكل ما يعين على شربها .

وكان أول ما أعلنه النبى فى ذلك أنه لم ينظر إلى المادة التى تتخذ منها الخمر ، وإنما نظر إلى حال الأثر الذى تحدثه وهو الأسكار ، فما كان فيه قوة الأسكار فهو كالخمر مهما وضع الناس لها من ألقاب وأسماء ، ومهما تكن المادة التى صنعت منها — وعلى هذا فالبيرة وما شابهها حرام .

وقد سئل النبى « ﷺ » عن أشربة تصنع من العسل أو من الذرة والشعير تنبذ حتى تشتد ، وكان النبى « ﷺ » قد أوتى جوامع الكلم فأجاب بجواب جامع : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام »[1] .

***

---

(١) رواه مسلم ، ت : ٥٧ .

وأعلن عمر على الناس من فوق منبر الرسول عليه السلام : الخمر ما خامر العقل[١] .

ثم كان الإسلام حاسما مرة أخرى حين لم ينظر إلى القدر المشروب من الخمر قل أو كثر ، فيكفى أن تنزلق قدم الإنسان فى هذه السبيل ، فيمضى ويتحدر ، لا يلوى على شيء .

لهذا قال رسول الله « ﷺ » : « ما أسكر كثيره فقليله حرام »[٢] .

ولم يكتف النبى عليه السلام بتحريم شرب الخمر قليلها وكثيرها ، بل حرم الاتجار بها ، ولو مع غير المسلمين ، فلا يحل لمسلم أن يعمل مستوردا أو مصدرا للخمر ، أو صاحب محل لبيع الخمر ، أو عاملا فى هذا المحل .

ومن أجل ذلك لعن « ﷺ » فى الخمر عشرة ، عاصرها ومعتصرها ــ أى من عصرها ــ وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشتراه له[٣] .

ولما نزلت آية المائدة السابقة قال النبى « ﷺ » : ان الله حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية ، وعنده منها شيء ، فلا يشرب ولا يبع » قال راوى الحديث : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها[٤] .

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أحمد وأبو داود .
(٣) الترمذى وابن ماجه ورواته ثقات ، ت : ٦٠ .
(٤) رواه مسلم ، ت : ٦١ .

وعلى طريقة الإسلام فى سد الذرائع إلى الحرام ، حرم على المسلم أن يبيع العنب لمن يعرف أنه سيعصره خمرا ، وفى الحديث : « من حبس العنب أيام القطاف ، حتى يبيعه من يهودى — أى : ليهودى — أو نصرانى أو ممن يتخذه خمرا — أى : ولو كان مسلما — فقد تقحم النار على بصيرة[1] »

وإذا كان بيع الخمر وأكل ثمنها حراما على المسلم ، فإن اهداءها بغير عوض ، ولغير مسلم من يهودى أو نصرانى أو غيره حرام أيضا ، فما ينبغى للمسلم أن تكون الخمر هدية منه ، ولا هدية إليه ، فهو طيب لا يهدى إلا طيبا ولا يقبل إلا طيبا .

وقد روى أن رجلا أراد أن يهدى للنبى عليه الصلاة والسلام راوية خمر ، فأخبره النبى أن الله حرمها ، فقال الرجل :

— أفلا أبيعها ؟

فقال النبى : « ان الذى حرم شربها حرم بيعها » .

قال الرجل : أفلا أكارم بها اليهود ؟

فقال النبى : « ان الذى حرمها حرم أن يكارم بها اليهود » .

فقال الرجل : فكيف أصنع بها ؟

فقال النبى « ﷺ » شنها على البطحاء[2] .

وعلى هذه السنة أمر المسلم أن يقاطع مجالس الخمر ، ومجالسة شاربيها . فعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله « ﷺ » يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار عليها الخمر[3] » .

---

(١) رواه الطبرانى فى « الأوسط » وحسنه الحافظ « فى بلوغ المرام » ، ت : ٦٢ .

(٢) رواه الحميدى فى « مسنده » ، ت : ٦٤ .

(٣) رواه أحمد ، ومعناه عند الترمذى ، ت : ٦٥ .

ان المسلم مأمور أن يغير المنكر إذا رآه ، فإذا لم يستطع أن يزيله ، فليزل هو عنه ، وليناً عن موطنه وأهله .

ومما روى عن الخليفة الراشد عمر بن العزيز أنه كان يجلد شاربى الخمر ومن شهد مجلسهم ، وان لم يشرب معهم . ورووا أنه رفع إليه قوم شربوا الخمر ، فأمر بجلدهم ، فقيل له : ان فيهم فلانا ، وقد كان صائما ؟ فقال : به أبدؤوا . أما سمعتم قول الله تعالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره أنكم إذا مثلهم) سورة النساء : ١٤٠ .

بكل هذه النصوص الواضحة كان الإسلام حاسما كل الحسم فى محاربة الخمر وأبعاد المسلم عنها ، وإقامة الحواجز بينه وبينها ، فلم يفتح أى منفذ — وأن ضاق وصغر — لتناولها أو ملابستها .

لم يبح للمسلم شربها ولو القليل منها ، ولا ملابستها ببيع أو شراء أو اهداء أو صناعة ، ولا ادخالها فى متجره أو فى بيته ، ولا احضارها فى حفلات الأفراح وغير الأفراح ، ولا تقديمها لضيف غير مسلم ، ولا أن تدخل فى أى طعام أو شراب .

بقى هنا جانب قد يسأل عنه بعض الناس وهو استعمال الخمر كدواء . وهذا ما أجاب الرسول « ﷺ » عنه ، فقد سأله رجل عن الخمر ، فنهاه عنها ، فقال الرجل : إنما أصنعها للدواء . قال « ﷺ » : أنه ليس بدواء ولكنه داء[1] » .

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى ، ت : ٦٦ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه فى شأن المسكر : « ان الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم[1] .

ولا عجب أن يحرم الإسلام التداوى بالخمر وغيرها من المحرمات ، فإن تحريم الشيء — كما قال الإمام ابن القيم[2] — يقتضى تجنبه والبعد عنه بكل طريق وفى اتخاذه دواء حض على الترغيب فيه وملابسته ، وهذا ضد مقصود الشارع .

قال : وأيضا ، فإن فى اباحة التداوى به — ولاسيما إذا كانت النفوس تميل اليه — ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة ، وبخاصة إذا عرفت النفوس أنه نافع لها ، ومزيل لاسقامها ، جالب لشفائها .

وأيضا فإن فى هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء .

وقد تنبه ابن القيم رحمه الله الى جانب نفسى هام فقال : ان من شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول ، واعتقاد منفعته ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء . ومعلوم أن أعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد منفعتها وبركتها ، وحسن ظنه بها وتلقيه لها بالقبول ، بل كلما كان العبد أعظم ايمانا كان أكره لها ، وأسوأ اعتقادا فيها ، وكان طبعه أكره شيء لها ، فإذا تناولها فى هذه الحال كانت داء لا دواء[3] .

***

---

(١) رواه البخارى تعليقا ، ت : ٦٨ .

(٢) أنظر زاد المعاد جـ٣ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٣) المصدر السابق بتصرف .

من أجل ذلك علق الإسلام بالخمر جملة من الأحكام ، تتلاقى جميعها وتتعاون على انقاذ العقل المؤمن من شر تلك المادة الخبيثة ، وبالاستقراء كان للخمر فى الإسلام عدة أحكام .

- فأولها الحرمة القطعية ، وقد ثبتت بالقرآن ، والقرآن هو المصدر الأول لتشريع الأحكام . وثبتت بالسنة ، والسنة : هى المصدر الثانى لتشريع الأحكام ، تبين مجمل القرآن ، وتثبت مالم يعرضه القرآن . وثبتت بالإجماع .

- والإجماع : اتفاق أهل الدراية ، وهم أولو الأمر المذكورون فى الآية التى أشارت إلى مصادر التشريع الإسلامى ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[1] والإجماع ، كما جاء فى هذه الآية ، هو المصدر الثالث لتشريع الأحكام ، وهو مبنى على الاجتهاد ، وبذل الوسع فى تحرى المصلحة التى تتوقف عليها حياة الأمة وانتظام شأنها وتقدمها . وهذه المصادر الثلاثة : القرآن ، السنة ، الاجماع مرتبة فى العمل ، كما هى مرتبة فى الآية ، فلا سنة ولا إجماع فيما يخالف القرآن ، ولا أجماع فيما يخالف السنة ، فإن وجد الحكم فى القرآن فهو المصدر ولا مصدر سواه ، وان وجد فى السنة ، فهى المصدر ، ولا مصدر سواها ، وان لم يوجد فى القرآن ولا فى السنة ، فعلى الفقهاء أهل الدراية بقواعد التشريع العامة ، وبجهات المصالح ، أن يجتهدوا ، فما اتفقوا عليه فهو الحكم ولا حكم سواه .

---

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء .

ـــ نقلا عن كتاب الفتاوى للامام الأكبر : محمود شلتوت .

• وقد ثبتت حرمة الخمر بالمصادر الثلاثة وهى مما لا يقبل التغيير لتعلقها بلازم لا ينفك ، ثبتت بتلك الآية الصريحة : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون[1] ؟ وقد احتوت الآية على جملة من أساليب التحريم القوية :

فأولا : نظمت الخمر مع مظاهر الشرك فى توحيد الله وعبادته ، وهى الأنصاب والأزلام فى سلك واحد « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام » .

وثانيا : وصفت الجميع بأنه « رجس » واستخدمت كلمة « إنما » الدالة على أنه لا صفة لها سوى الرجسية ، وبتتبع كلمة « رجس » فى القرآن لم نجدها إلا عنوانا على ما أشتد قبحه ، وعظم عند الله تحريمه « فاجتنبوا الرجس من الأوثان »[2] ، فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون »[3] .

« كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »[4] « فأعرضوا عنهم ، انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون[5] » « أو لحم خنزير فانه رجس »[6] ، وهكذا أندرج

---

(١) الآيتان ٩٠ ، ٩١ من سورة المائدة
(٢) الآية ٣٠ من سورة الحج .
(٣) الآية ٢١٥ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٩٥ من سورة التوبة .
(٦) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

شرب الخمر مع الكفر والكافرين ، وعبادة الأوثان تحت كلمة « رجس » .

وثالثا : وصفت الآية الخمر بأنها من عمل الشيطان ، وهو كناية فى اللسان العربى ، وفى الأسلوب القرآنى ، على غاية القبح ، ونهاية الشر .

ورابعا : أمرت الآية باجتنابه « فاجتنبوه » ومعناه : أن تكون الخمر فى جانب والمؤمن فى جانب بحيث لا يقربها ، فضلا عن أن يتصل بها ، فضلا عن أن يتناولها .

وخامسا : علقت الآية على اجتنابه رجاء الفلاح ، والفلاح يتضمن السلامة من الخسران والحصول على خيرى الدنيا والآخرة . وأرشد ذلك الى أن الأقتراب من الخمر يوقع فى الخسران العام المطلق .

وسادسا : أرشدت الآية الى أثره السيء فى علاقة الناس بعضهم مع بعض ، يقطع الصلات ، ويدفع لسفك الدماء وانتهاك الحرمات « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر » .

وسابعا : سجلت الآية أن من آثار الخمر ، بعد هذا الضرر الاجتماعى ، ضررا آخر روحيا ، يقطع صلة الإنسان بربه ، وينزع من نفسه عظمة الله عن طريق مراقبته بالصلاة الخاشعة ، وتذكر جلاله وجماله ، وذلك بما يترك فى القلب من قسوة ، وفى دنس . « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » . وأخيرا . تختم الآية هذه

الجهات كلها بهذا الاستفهام التقريعى الدال على غاية التهديد : « فهل أنتم منتهون ؟ .. تلك أساليب التحريم التى تضمنتها آية الخمر ، وانه لفى الواحد منها ما يملأ قلب المؤمن بربه رهبة من غضبه إذا ما حدثته نفسه أن يقترب من الخمر .

وعلى هذا المبدأ ، الذى قررته الآية بتلك الأساليب المختلفة فى تحريم الخمر ، جاءت عن الرسول الأحاديث الصحيحة بروايات متعددة ، وأسانيد مختلفة « كل مسكر خمر وكل خمر حرام / ، « لعن الله الخمر ، شاربها وساقيها وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه .

والأحاديث فى تحريمها ، وتحريم صنعها ، والاتصال بها على أى نحو من الأنحاء أكثر من أن تحصى ، حتى قال العلماء : ثبت عن النبى « ﷺ » تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر ، وأجمعت الأمة من لدن الرسول ﷺ إلى يومنا هذا على تحريمها ، وبذلك استقرت الحرمة حكما للخمر فى الإسلام ، وصارت حرمتها من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن لوازم ذلك أن من استحلها وأنكر حرمتها يكون خارجا عن الإسلام ، وأن من يتناولها طائعا مختارا يكون فاسقا عن أمر الله ، خارجا على حدوده ، عاصيا لأحكامه .

فمن استحل الخمر بعد هذا التحريم الذى تعددت مصادره وتنوعت طرقه ، وقويت أساليبه ، وأنتشر أمره انتشارا لا يمكن أن يخفى على مسلم فى بلاد الإسلام فهو مرتد عن الإسلام ، لإنكاره معلوما من الدين بالضرورة .

***

من أخبار الأمم السابقة :

أن أمرأة أرادت اغراء رجل صالح .. فدعته الى بيتها وهو لا يعلم سببا لهذه الدعوة ، حتى إذا أنفردت به غلقت الأبواب ثم قالت له :

اختر واحدا من أربعة :

أما أن تزنى بى ، أو تقتل هذا الطفل الذى يجلس معنا ، أو تشرب كأسا من هذه الخمر ، وأما فضحتك أمام الناس .

فقال الرجل فى نفسه .. الخمر أهون هذه الأشياء .. ثم رضى أن يشرب كأسا وما كاد يفرغ منه حتى طلب ثانيا وثالثا حتى سكر .. فلما بلغ هذه المرحلة من السكر . زنى بالمرأة ، وقتل الغلام .

ويقال أن ابليس ظهر له وقال : إذا أردت أن أنقذك فاسجد لى من دون الله .

ففعل .. فتركه ابليس وفر هاربا ، وانتهى الأمر بهذا الرجل الى الكفر .

***

وفى الجاهلية قبل الإسلام كان جماعة من الأنصار جالسين فى شرب الخمر قبل أن يحرمها الإسلام ، فشربوا ثم سكروا فعبث بعضهم ببعض وثار بعضهم على بعض بالضرب والقتل ، فلما صحوا وزال عنهم السكر ، قال بعضهم لبعض : والله ما فعل بى فلان هذا إلا لحقد كامن فى قلبه علىّ قبل السكر ، فنشبت بينهم الحرب سنين عديدة حتى أطفأها الله بالاسلام وببعثة محمد ـــ عليه الصلاة

والسلام — وأنزل الله « واذكروا اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا » .

وقد قال النبى — ﷺ — لأشج عبد القيس : « ما هذه الشجة التى أرى فى وجهك . فقال : يا رسول الله إن رجلا من قومى شرب الخمر فسكر ، فضربنى بلحى جمل حتى شجنى . فقال : نعم . قاتل الله الخمر هكذا تفعل بشاربها » وذكر ابن رجب فى اللطائف : أن رجلا كان يشرب الخمر وكانت أمه تنهاه عن شربها ، فبينما هى ذات يوم وقد سجرت تنورها فجاء ابنها وهو سكران فحمل أمه وقذف بها فى التنور فاحترقت[1] .

***

أما بالنسبة للحشيش والأفيون وغيرهما من المخدرات كالكوكايين والهيروين فان شيئا منها لم يكن موجودا على عهد الرسول « ﷺ » .

وإنما فشت هذه المخدرات وعرفت منذ غزو التتار للعالم الإسلامى .. كما أن الهيروين والكوكايين من المخلقات التى أشتقت من الحشيش والأفيون فى عصرنا الحاضر .

صحيح أنه ورد حديث ترويه السيدة عائشة عن النبى « ﷺ » تقول فيه : نهى رسول الله . عن كل « مفتر » والمفتر أخف كثيرا من المخدر . ولو طبقنا هذا الحديث تطبيقا حرفيا لشمل أشياء كثيرة تدخل فى نطاق « التفتير » وان لم تكن محرمة . ومن باب أولى أن ينطبق هذا الحكم على المخدرات بأنواعها المختلفة .

---

(١) نقلا عن كتاب الخمر والمسكرات : الشيخ عبد الله بن زيد .

ولما كان من أهم مقاصد الشريعة : حماية العقل . والدين . والنسل . والمال والعرض . فلسوف لا نكون بحاجة إلى دليل يحرم كل هذه المخدرات التى تذهب بالمال والدين والعقل ، وتدفع بصاحبها إلى التساهل والتفريط فى الشرف والعرض .

ولما كانت كلمة « الخمر » تطلق على كل ما خامر العقل . كما قال ذلك سيدنا عمر فإن هذا الحكم يشمل كل ما يخرج العقل عن طبيعته المميزة المدركة سواء أكان هذا « خمرا » أم « مخدرا » جامدا .. أم سائلا ، وسواء تناوله بالفم والشم ، أو بالحقن فى الوريد أو العضل . فالتحريم هنا يدور مع السبب والعلة التى من أجلهما حرمت الخمر .

وعلى هذه الحركة أجمع فقهاء الإسلام الذين ظهرت فى أزمنتهم هذه الخبائث وفى طليعتهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذى قال : هذه الحشيشة الصلبة حرام سواء سكر منها أم لم يسكر .. وإنما يتناولها الفجار لما فيها من النشوة والطرب ، فهى تجامع الشراب المسكر فى ذلك ، والخمر توجب الحركة والخصومة ، وهذه توجب الفتور والذلة ، وفيها مع ذلك من فساد المزاج والعقل ، وفتح باب الشهوة ، وما توجبه من الدياثة (فقدان الغيرة) ما هو شر من الشراب المسكر . وإنما حدثت فى الناس بحدوث التتار . وعلى تناول القليل والكثير منها حد الشرب ـــ ثمانون سوطا أو أربعون .

ومن ظهر منه أكل الحشيشة فهو بمنزلة من ظهر منه شرب الخمر وشر منه من بعض الوجوه ، ويعاقب على ذلك كما يعاقب هذا . قال : وقاعدة الشريعة أن ما تشتهيه النفوس من المحرمات كالخمر والزنا ففيه الحد ، وما لا تشتهيه كالميتة ففيه التعزيز ، والحشيشة مما

يشتهيها آكلوها ، ويمتنعون عن تركها ، ونصوص التحريم فى الكتاب والسنة على من يتناولها كما يتناول غير ذلك[1]

يقول الإمام ابن تيمية أيضا :

إن الحشيشة حرام يحد متناولها كما يحد شارب الخمر وهى أخبث من الخمر من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير فى الرجل تخنث وديانة وغير ذلك من الفساد ، وأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهى داخلة فيما حرمه الله ورسوله من الخمر والمسكر لفظا ومعنى .

ومن استحل ذلك » وزعم أنه حلال . فإنه يستتاب . فإن تاب وإلا قتل مرتدا لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

وقد ذكر الشيخ قطب الدين العسقلانى أن فى الحشيش مائة وعشرين مضرة : دنيوية وأخروية .. نذكر منها :

تفتيت الكبد . والجذام والبرص . وموت الفجأة . وتصيب العيون بالاعشاء . وتورث الجنون . وتخلط العقول . وتسقط المرؤة وتهلك المال والثروة . وتقتل الغيرة وتكشف العورة . وتنسى الانسان ذكر ربه . وتورث الكسل عن الصلاة وحضور الجماعات . وتدفع المدمن إلى الوقوع فى المحظورات . وارتكاب المحرمات وأنها تورث أكثر من ثلاثمائة داء فى البدن . وكل داء منها ليس له دواء .

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ٤ ص ٢٦٢ وما بعدها ، راجع « السياسة الشرعية » له أيضا .

المرجع : الوسيط فى شرح قانون المخدرات الجديد المستشار حسن عكوش الطبعة الرابعة ١٩٧٤ ص ٢٢٩ .

ان العالم اليوم يتعرض لأشد الكوارث ، وفى مقدمة هذه الكوارث هذه المخدرات التى تحولت الى وباء ينذر بأخطر المخاطر ..

لقد أوشك شعب « الصين » أن ينتهى بسبب ادمانه الأفيون لولا أن تداركه الله بلطفه ، وفى يوميات حرب « فيتنام » أن من أهم أسباب الانسحاب الأمريكى من هذه الدولة انتشار المخدرات بين ضباط وجنود الحملة .

ان المخدرات تأتى فى مقدمة أسباب هذا الأنهيار الخلقى .. الذى يجتاح العالم .

والمأساة أن عدداً من دول العالم يدعم هذه التجارة وملوكها غير المتوجين مما أدى إلى اتساع نطاقها بصورة مخيفة لم يسبق لها مثيل ..

فقد ذكر جورج بوش نائب الرئيس الأمريكى ورئيس فرقة العمل المكلفة بمكافحة المخدرات فى جنوبى فلوريدا أن حجم تجارة المخدرات يصل إلى ما قيمته ١٠٠[١] مليار دولار فى العام الواحد ..

وتأكدت الزيادة المخيفة فى حجم هذه التجارة عندما أذاعت وزارة الخارجية الأمريكية تقريرا شاملا عن الصورة الحقيقية لتجارة المخدرات على مستوى العالم .

وطبقا لما أورده التقرير فإن إنتاج الكوكايين وهو المخدر الذى يلقى رواجا كبيرا من المدمنين فى الولايات المتحدة وأوروبا زاد بنسبة

---

(١) لقد ذكرنا قبل ذلك ، أن ما ينفق على المخدرات فى الولايات المتحدة يبلغ سبعة عشر ألف مليون دولار .

ثلاثين فى المائة ، فى الوقت الذى انخفض فيه الانتاج العالمى من الماريجوانا ومن الحشيش بنسبة ضئيلة لا تتجاوز عشرة فى المائة ..

والمشكلة الحقيقية تتمثل فى الزيادة الوهمية فى الانتاج العالمى من الكوكايين الذى أصبح ادمانه « موضة » فى دول العالم المتقدم ، وذلك على الرغم من الجهود المكثفة التى يقوم بها عدد من دول العالم بقيادة الولايات المتحدة لكبح جماح انتشار هذا المخدر على المستوى العالمى ..

وأضاف تقرير الخارجية الأمريكية أنه لم يتم تدمير أى مصنع من مصانع انتاج الكوكايين خلال العام الماضى ١٩٨٤ فى بوليفيا وذلك على الرغم من أن هذه الدولة تعد ثانى أكبر منتج لنبات الكوكة الذى يستخلص منه الكوكايين فى العالم .

واعترف التقرير بأن انتاج الكوكة تضاعف ثلاث مرات خلال الفترة ١٩٧٧ — ١٩٨٤ . ومن ناحية أخرى اتسع نطاق زراعة الكوكة بصورة مضطردة خلال نفس الفترة فى دولة بيرو وهى من الدول الرئيسية فى انتاج الكوكايين ولا يقتصر الأمر على مجرد زيادة انتاج الكوكة فى الدول المنتجة لها أساسا ، بل أن الخطير فى الموقف أن زراعة الكوكة أنتشرت بصورة متوالية فى كثير من الدول الأخرى مثل أكوادور ..

ففى العام الماضى ١٩٨٤ لم تكن أكوادور من الدول المنتجة لنبات الكوكة ، ولكن فى العام الحالى ١٩٨٥ وصل محصول الكوكة فى أكوادور إلى ما يقارب ألف طن الأمر الذى يضعها كثالث أكبر دولة

منتجة للكوكة فى العالم بأسره .

وفى الماضى . كان خبراء المخدرات على ثقة بأن نبات الكوكة لا ينمو سوى على منحدرات الجبال المكشوفة وبالتالى تسهل عملية الكشف عنه ومكافحته ، ثم تبين لهؤلاء الخبراء أن هناك نوعا آخر من الكوكة يطلق عليه اسم « ايبادو » ويمكن أن ينمو بغزارة فى الأحراش والغابات .

ويعترف دانتى فاسيل عضو الكونجرس الأمريكى عن ولاية فلوريدا أنه رغم وجود بعض التطورات المشجعة فى الحرب التى تشنها واشنطن ضد المخدرات فى أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية إلا إنه من المؤكد أن الولايات المتحدة بدأت تخسر هذه الحرب ..

ومن الأمثلة التى تشير إلى خطورة الموقف وحجم وضراوة حرب الكوكايين أن سلطات الجمارك فى ميامى بالولايات المتحدة ألقت القبض فى فبراير من العام الحالى على عدد من المهربين وهم على متن طائرة نفاثه من طراز بوينج ـــ ٧٤٧ تابعة لشركة الخطوط الجوية الكولومبية بعد اكتشاف أكثر من ألف كيلو جرام من الكوكايين مخبأة فى ٣٢ صندوقا وتقدر قيمة الكوكايين المضبوط بما يساوى ٦٠٠ مليون دولار ..

المهم أن هذا الحادث لم يكن الوحيد من نوعه خلال السنوات الأخيرة ، بل كان الحادث الرابع والثلاثين خلال الخمس سنوات الأخيرة .. فقط .

ومع أشتداد حملات مكافحة المخدرات وتضييق الخناق على

التجارة المحرمة ، يصبح المسئولون عن هذه الحملات هدفا لعمليات انتقامية من جانب ملوك المخدرات ..

ففى نوفمبر الماضى عل سبيل المثال واجهت جهود واشنطن لمكافحة المخدرات تهديدات حقيقية على ثلاث جبهات منفصلة ..

ففى كولومبيا ، أنفجرت قنبلة تحت سيارة تابعة للسفارة الأمريكية فى العاصمة بوجوتا مما أسفر عن مصرع سيدة ، كما تلقت السفارة الأمريكية تهديدات من مجهولين بقتل الموظفين الأمريكين المسئولين عن مكافحة المخدرات هناك مما أجبر السفارة الأميريكية فى نهاية الأمر الى ترحيل ١٧ من موظفيها مع عائلاتهم وإعادتهم إلى الولايات المتحدة .

وفى بيرو لقى ١٩ من العاملين فى البرنامج الأمريكى لمكافحة المخدرات مصرعهم وتعرض أربعة منهم للتعذيب قبيل قتلهم .

وفى بوليفيا ، اكتشف رجال المخابرات الأمريكية أن اثنين من تجار المخدرات هناك دفعا نصف مليون دولار لأحد المسلحين مقابل قيامه باغتيال أدوين كور السفير الأمريكى فى العاصمة « لاباز » الأمر الذى أدى إلى تشديد الحراسة عليه ودفعه إلى تغيير طريقة المعتاد بصفة دائمة .

ولا تبدو هناك بارقة أمل فى أن وطأة العنف سوف تخبو ، بل المتوقع عكس ذلك تماما ..

ويقال أن ملوك المخدرات فى كولومبيا أقسموا على قتل خمسة

أمريكيين مقابل أى رجل من رجالهم يتم تسليمه إلى الولايات المتحدة .

كذلك رصد ملوك المخدرات هناك ٣٠٠ ألف دولار مكافأة لمن يأتى بأحد رجال مكافحة المخدرات فى كولومبيا حيا أو ميتا ..

المؤلم أن سلطات كولومبيا لا تملك أن تفعل شيئا إزاء هذا الارهاب السافر من جانب ملوك المخدرات ، ويكتفى بعض المسئولين هناك بتأكيد أن كبار تجارة المخدرات يعنون تماما ما يقولونه وأن أحد لا يملك أن يقتحم عليهم مناطقهم وإلا تعرض للحرب حتى الموت ..

وتولى إدارة الرئيس الأمريكى ريجان اهتماما كبيرا بحرب المخدرات وتمنحها أولوية قصوى ، إذ يشارك فى هذه الحرب ٣٧ من الهيئات الفيدرالية و ١١ وزارة أمريكية .

وتشن الولايات المتحدة حربها فى هذا الشأن على عدد من الجبهات والمستويات وتبدأ من محاولة استئصال محاصيل الكوكة من سفوح جبال الأنديز إلى استخدام الكلاب المدربة لاكتشاف وجود الكوكايين .

كذلك عمدت واشنطن الى اللجوء إلى الاجراءات السياسية فى حربها ضد المخدرات فقد أقر الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر ١٩٨٣ تعديلها يخول الرئيس الأمريكى قطع المعونة عن أية دولة تخفق فى تحقيق التخفيض المستهدف فى إنتاج المخدرات .

ومن المتوقع أن تكون بوليفيا أول ضحية لهذا التعديل طبقا لما يعتقده كل المسئولين فى واشنطن ، خاصة وانه من المقرر أن تتلقى

مساعدات أمريكية خلال العام المالى الحالى تقدر بحوالى ٤٨ مليون دولار .

وقد أعلنت بولاهو كينز عضو مجلس الشيوخ الأمريكى والتى تولت الدعوة لهذا التعديل أن بوليفيا لن تحصل على أى دولار واحد من الولايات المتحدة بعد الآن .

وعلى الرغم من كل تلك الجهود العديدة التى تبذلها الإدارة الأمريكية على جبهات مختلفة للحد من تجارة المخدرات ، فإن النتيجة ليست ايجابية على الاطلاق ، بل على العكس فقد زادت كميات الكوكايين التى تم ضبطها ثلاثين مثلا منذ عام ١٩٧٧ وحتى الآن كذلك قفز سعر كيلو الكوكايين فى الولايات المتحدة من ٢٣ ألف دولار إلى ٣٥ ألفا خلال السنة الماضية .

ففى خلال أسبوعين فقط من شهر يناير الماضى صادرت السلطات الأمريكية فى ولاية فلوريدا أكثر من طنين من المخدرات وهو يتعدى ما ضبطه رجال مكافحة المخدرات الأمريكيون جميعهم خلال عام ١٩٨١ .

وتعنى هذه الكميات الهائلة من الكوكايين والمخدرات التى تم ضبطها أن المخدرات لا تزال تتدفق على نطاق واسع الى داخل الولايات المتحدة أما عن طريق ميامى أو عبر ولايات اريزونا وتكساس وكاليفورنيا علاوة على ذلك فإن إنتاج نبات الكوكة يزدهر ويتضاعف وتنتشر معامل إنتاج الكوكايين ومراكز التهريب بصورة مضطرة لتغطى نصف الكرة الغربى .

***

هل تريدين مزيدا من الأدلة ــ بعد ذلك ــ أيتها الأخت .. ؟

ــ لا أظن ...

فالحلال بين .. والحرام بين .. ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

وأعوذ بالله .. لى .. ولك .. ولكل إنسان يشاركنا الحياة فوق ظهر هذا الكوكب من هذا المصير المحزن .. المفجع ..

وأنها لأكبر كارثة أن تنتهى الحياة على هذا النحو من الضياع والبلاهة .. والتشرد ..

التّلِفزيُون .. وَالجَرِيمَة ..

وتقول أختنا المسلمة :

إن التلفزيون يبدو لى كوباء .. تتساوى خطورته مع الخمر والمخدرات ولكن على المدى البعيد .

لقد لاحظت أن الناس يرغبون كثيراً فى مشاهدة الأفلام الأوربية والأمريكية .. عن مشاهدتهم للمحاضرات أو الأخبار التى يمكن أن تعلمهم شيئا ذا قيمة ..

أو أنهم يشترون كافة أنواع شرائط الفيديو الضارة بالعقول .

أننى أخشى بأن هذه الأفلام والشرائط قد تجلب العنف إلى بلد لا زالت الحياة فيه هادئة .. حيث أن الطرقات أكثر أمنا فيها . عن البلاد الأوربية ..

وأعتقد أنه من المؤسف أن أرى المصريين الذين تجدهم فى أغلب الأوقات يبدون أعجابهم بأوربا يقلدون بعض عادتهم السيئة مثل ارتداء الملابس الخليعة ، وشرب الخمر ...

ومن جهة أخرى .. فإن مشاهدتهم للتلفزيون تمنعهم من القراءة التى نصت عليها بوضوح السورة رقم (٩٦)[١] ، وتمنعهم من أرتياد المساجد التى أقامها الناس بتوفيق من الله – بدلاً من مشاهدتها فى

---

(١) سورة العلق ، وهى أول ما نزل من القرآن .

التليفزيون فقط . حيث أن الإنسان لا يشعر بعظمتها إلا عند تأدية الصلاة فيها ..

أننى أحاول جاهدة اقناع ابنتنا بأن تحسن اختيار ما تشاهدة فى التلفيزيون ، ولكن هناك صعوبة كبيرة فى منعها من مشاهدة ما يعرضه التلفزيون فى منازل الأصدقاء الذين تتزوار معهم .

اننى أدرك بأن صورة الإنسان أو الحيوان مما يحرمه القرآن ، ولكن القرآن لا يتعارض مع العلم وبالتالى فانه يبدو بأن البرامج التى تزيد معرفة الناس هى التى يجب انتاجها لكى يشاهدها المسلمون .

سوف أكون شاكرة لتوضيح هذه النقطة حيث اننى أرى الكثير من الناس الذين يتصرفون تصرفاً اسلامياً ما زالوا يشاهدون التلفزيون بكثرة . لدرجة انهم يؤجلون الصلاة حتى ينتهى المسلسل .

وأقول للأخت السائلة :

انها لمصادفة عجيبة أن أبدأ الإجابة عن التلفزيون وآثاره المدمرة بعد حوار ساخن بينى وبين بعض الأقارب الذين فوجئت بتجمعهم أمام هذا الجهاز فى وقت صلاة المغرب ... انهم يصلون ... ولكن الحوار كان بسبب تأخير الصلاة إلى حين ينتهى المسلسل ...

لقد تذكرت على الفور ما قلته فى سؤالك من أن كثيراً من الأسر تؤخر الصلاة عن مواعيدها لهذا السبب ، وهى كارثة أخلاقية تتعرض لها الأسرة المسلمة بسبب تأثير هذا الجهاز .. المدمر .. المخرب ..

لقد حاولت فى حوارى مع هؤلاء الأقارب أن أثير فى أنفسهم عاطفة الإيمان فالتوجيه العنيف لا يجدى فى مثل هذه الحال .. ما لم تكن هناك رغبة قلبية صادقة فى مقاومة هذا الانحلال .

لقد تجسدت كلماتك أمامى حرفا .. حرفا .. وتحولت هذه الكلمات والحروف إلى سهام تنهش هذا الجهاز وتمزقه اربا ..

ويشاء الله جلت قدرته ... أن أقرأ – بعد ذلك – فى مجلة أسبوعية حواراً مع أخت مسلمة – كان لها تاريخ سابق – فى التمثيل والفن .

لقد حاول المحرر الفنى لهذه المجلة أن يستدرجها إلى الماضى الذى ركلته إلى غير رجعة . فاذا بأختنا المؤمنة ترفض هذا الاستدراج وتسمو بايمانها فوق هذه الدنيا ، وكانت المفاجأة فى أجابتها على سؤال عن التمثيل ووصفها اياه بأنه رجس .. وأنها تمنع أولادها من مشاهدة الفيديو والتلفزيون لأنهما امتداد لهذا الرجس الذى اسمه التمثيل[1] والفن والرقص ..

لقد وضعت بسؤالك هذا– أيتها الأخت – المبضع على الجرح .. بل هى جراح عديدة تقيحت فى جسم المجتمع الذى سرى فيه هذا السم .. وهى محاولة خبيثة فى محاكاة أوربا وتقليدها فيما لا ينفع ... ويضر .. بل هى موجة جديدة من موجات الغزو الصليبى ولكن فى صورة أخرى هى القتل بدون إراقة دم ..

---

(١) مجلة المصور عدد ١ أغسطس ١٩٨٦ م .

لقد كان نظام التعليم الغربى محاولة عميقة وخفية لابادة العنصر الاسلامى والقضاء عليه .

وقد عبر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الاسلامى « أكبر » (الاله آبادى) فى أسلوبه الطريف الخاص إذ يقول :

« يا لبلادة فرعون الذى لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة فى التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب فى بيت آخر يقول :

« إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن التعليم الغربى يغير طبيعته وقلبه » .

وجاء اقبال بعده بسنوات وقد أكتوى بنار هذا التعليم الغربى وخاض فى وحله ، فأبدى حقيقته فى أسلوب أكثر عمقا وحرارة :

يقول اقبال :

« أياك أن تكون آمنا من العلم الذى تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها » .

« ان التعليم هو « الحامض » الذى يذيب شخصية الكائن الحى ، ثم يكونها كما يشاء ، ان هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيرا من أى مادة كيمائية ، هو الذى يستطيع أن يحول جبلا شامخا إلى كومة من

تراب »(١) .

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربي لشباب الاسلامي في البلاد العربية والعجمية ، وغير عقليتهم الى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الاسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي أيضا ويصبحون جزءا منه ، ويشير الى ذلك « اقبال » بقوله :

«ان سحر الأفرنج ، أو فنه أذاب الصخور وأسالها ماءا(٢) ».

وقد جاء في سؤالك أن « التلفزيون » بصورته الراهنة يستوى مع الخمر على المدى البعيد لأنه ينهى عن الصلاة ، ويصرف الناس عن ذكر الله وبالتالى يحول بينهم وبين الذهاب الى المساجد التى هى بيوت الله ، ويحرمهم من المتعة الروحية التى يهون دونها كل شىء فى هذا الحياة .. وأوافقك تماما على هذه الرؤية .. وهذا الرأى .. وهى موافقة يؤيدها الواقع والتجربة ويؤيدها تكاسل الناس عن الصلاة كما ذكرت فى هذه المقدمة .

وفى هذا يقول أحد مفكرى فرنسا المتحاملين على المسلمين والإسلام :

ما دخلت مسجدا قط .. دون أن تهزنى عاطفة حادة .. أو بعبارة أخرى : « ما دخلت مسجدا قط دون أن يصيبنى أسف محقق على

---

(١) أرمغان حجاز . نقلا عن كتاب « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية للعلامة أبو الحسن الندوى » صـ ١٦٧ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق صـ ١٧٠ .

أننى لم أكن مسلماً[1] .

وقد أحسن « مونتسيكيو » فى قوله :

ان المرء أشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأى دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر ، وأن دين المسلم يتمثل فى مخيلته ، وفى الصلوات اليومية ، يتجلى هذا الدين فى طريقة تعبدية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين .

يقول سعيد بن الحسن . أحد يهود الاسكندرية الذين اعتنقوا الإسلام عن مشهد صلاة الجمعة فى أحد المساجد باعتباره عاملا مؤثرا فى تحوله الى الاسلام فى خلال مرض شديد كان قد انتابه :

« ... عندما دخلت المسجد .. رأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة ، وسمعت هاتفا يقول :

هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ بقدومها .. ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء . استولى على شعور عميق من الرهبة .

ولما ختم خطبته بكلمات « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .. وبدأت الصلاة .

أحسست بقوة تدفعنى الى النهوض . لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة . الذين يتجلى الله القدير فى سجداتهم .

---

(١) الدعوة الى الإسلام . سير توماس أرنولد ص ٤٥٩ .

ثم سمعت هاتفا يهتف بى :

« اذا كان الله قد تحدث مرتين الى بنى اسرائيل فى كل العصور . فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات الصلاة ، وأيقنت فى نفسى أننى خلقت لأكون مسلما[1] » .

***

وبادىء ذى بدء ..

أريد أن يكون واضحا لديك .. أن أقتناء التلفزيون أو الفيديو ليس محرما شرعا، هذه قضية لا تخطر ببالى أبدا .. فاساءة استعماله ، أو سوء اختيار برامجه لا يعنى الحكم بالاعدام على هذا الجهاز الذى يمكن أن يصنع الكثير من أجلنا ومن أجل عقيدتنا .. كما لا يجوز أن نقول أن حمل السلاح للدفاع عن الدين والوطن جريمة ، لأن القتلة وعصابات « المافيا » واللصوص تستعمل هذا السلاح فى أغراض أخرى .

ان القضية هنا ليست قضية « التلفزيون » كأداة ووسيلة ، ولكن المشكلة هى فى كيفية استخدامه ، والإرتقاء ببرامجه ، واختيار الأنفع والأصلح لتحقيق مصلحة هذا الشعب ورقية وتقدمه .

ألم يقل الجنرال شارل ديجول رئيسكم الأسبق فى معرض الحديث عن التلفزيون :

---

(١) الدعوة الى الاسلام ــ سير توماس أرنولد ــ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

أعطني هذه الشاشة الصغيرة ، وسترى كيف أغير هذا الشعب الفرنسي ..

***

وقد فهمت من سؤالك أن التصوير يدخل فى دائرة التحريم ، وهى قضية فرغ منها العلماء والمجتهدون حيث أنهم اتفقوا على أن التصوير الشمسى لا يقع فى دائرة الحرمة ، وأن التصوير المنهى عنه أنما هو التصوير المجسد أى صناعة التماثيل التى تشبه فى هيئتها أصنام الجاهلية ..

وكما تعلمين .. فإن التصوير الشمسى أو الفوتوغرافى أصبح من ضرورة الحياة فى عصرنا الحاضر ، وتحقيق المصلحة فيه مما لا يجادل فيه مسلم عاقل ... وحيث كانت المصلحة ... كان شرع الله ورحمته بهذا العالم .

نعود إلى قضيتنا الرئيسية .. إلى التلفزيون الذى أصبح الشغل الشاغل للعلماء والغيورين على مستقبل الحياة فوق هذه الكرة الأرضية .

يقول بعض الخبراء أن المرء يحصل على المعلومات أو المعرفة الإنسانية عموماً عن طريق الحواس الخمس ، وبعد عدة تجارب وجدوا أن الانسان يحصل على معلومات (١) بالنسب المئوية التالية : عن طريق البصر ٧٥٪ ، عن طريق السمع ١٣٪ ، عن طريق اللمس ٦٪ ، عن طريق الشم ٣٪ ، عن طريق التذوق ٣٪ .

(١) عن مجلة الأمة عدد رمضان ١٤٠٦ ه .

وقد أجريت بعض التجارب للتأكد من دور الصور فى تذكر المعلومات ، حيث ألقيت بعض المحاضرات على عدد من المستمعين من أعمار وتخصصات ومستويات تعليمية مختلفة لمدة ساعة ، وكان قوام المحاضرة الواحدة ست صفحات فولوسكاب ، وفى اليوم التالى طلب إلى المستمعين تسجيل ما يتذكرونه من المحاضرة ، فكانت النتيجة فى كل الأحوال لا تزيد عن نصف صفحة فقط مما ألقى عليهم .

ثم أجريت تجارب أخرى وعرضت على المبحوثين أفلام تحمل مضمون المحاضرات نفسها ، وطلب اليهم أيضا فى اليوم التالى تسجيل ما يتذكرونه فكانت النتيجة أن متوسط ما يتذكره كل واحد منهم ٧٥٪ من المعلومات التى عرضت عليهم حتى فى أدق التفاصيل ..

وقد تبين من دراسة تحليلية (١) لعينه من المضمون الأجنبى المذاع فى التلفزيون المصرى ان القيم السلبية تشكل ٤٦٫١٧٪ من مجموع القيم التى عكسها هذا المضمون ، حيث يركز على دور الفرد بصفة أساسية دون النظر إلى المجموع ، ويستخدم القسوة والعنف كوسيلة لحل الصراع ، ويتعصب بشدة للمجتمع الأمريكى . حيث تعكس المسلسلات الأمريكية عظمة الشعب الأمريكى والمزايا التى يتمتع بها ، كما تظهر الدول الأخرى فى صورة سيئة وتصفهم بالجهل والتأخر ، وتزداد خطورة هذا المضمون بطرق غير مباشرة على المشاهدين - خاصة الأطفال - حيث يركز على جوانب العنف

---

(١) عن مجلة الأمة عدد رمضان ١٤٠٦ ﻫ .

والجريمة ، ويروج لجوانب الانحلال الأخلاق ، ويبرز ضعف الروابط الأسرية وانفصال الأبناء عن الآباء .

بالإضافة إلى ذلك نجد أن هذا المضمون الأجنبى لا يحمل معه ما ينبغى أن ننميه فى أطفالنا بل يؤدى إلى تثبيت قيم ومفاهيم خاطئة وضارة بالمجتمع ، ولا يؤكد على المعلومات والقيم التى لابد من التأكيد عليها للطفل ، حيث يجب فتح عقول أطفالنا على قضايانا مع مراعاة قواعد التربية وعلم النفس حتى تتناسب هذه البرامج مع الأعمار المختلفة وما يناسب كلا منها .

- والتليفزيون هبط بمستوى الذوق والخلق عند الأطفال .
- والتليفزيون يعمل على الاقلال من معرفة الطفل ويأخذ من وقت القراءة .
- والتليفزيون يساعد على انتشار العنف عند الأطفال ويعمل على نشر الجريمة .

فالتلفزيون يأخذ الطفل من أحضان أمه ولا يوفر وقتا للعلاقات العائلية ، وبالتالى ساعد على غربة الطفل فى بيته وشعوره بالانعزال[1] .

ولقد نشرت مجلة الاذاعة والتليفزيون[2] فى عدد سابق عبارة شهيرة لأحد النقاد المعروفين قال فيها :

---

(١) نقلا عن مجلة الأزهر ــ للأستاذ حسن على العيسى .

(٢) مجلة الاذاعة العدد رقم ١٨٧٣ الصادر فى ١٩٧١/٢/٦ م .

« لقد كنا نخاف على البنت أو الولد ونمنعها من دخول « الكباريه » فأدخل التلفزيون « الكباريهات » الى كل بيت ... !!

حتى العلاقات الزوجية فقدت قدسيتها وتحولت إلى مجموعة من المشاهد المثيرة التى تدور حول علاقات حجرة النوم بين الزوجين ..

والملاحظ أن الاقبال على التلفزيون يطغى على جميع وسائل الاتصال لدى الأطفال وهنا ـــ فى الحقيقة ـــ خطورة الموقف إذ يسيطر التلفزيون ويستأثر بنصيب الأسد فى عدد المشاهدين من الأطفال .. ومن هنا ننادى بضرورة التدقيق فيما يقدم من موضوعات ..

وفى تجربة أجراها الباحثون فى هذا الميدان تبين لهم أن معدل السن الذى يبدأ فيه الأبناء التعرف على التلفزيون هو ٨ر٢ سنة ، وفى تجربة قام بها نفس الباحثين فى سان فرانسيسكو للتمييز بين استعمال الطفل للتلفزيون وبين الاستعمال المنتظم فوجدوا أن :

٣٧٪ من الأطفال يستخدم هذا الجهاز فى سن الثالثة .

٦٦٪ من الأطفال يستخدم هذا الجهاز فى سن الرابعة .

أكثر من ٨٠٪ من الأطفال يستخدم هذا الجهاز فى سن الخامسة (وهى سن الذهاب إلى رياض الأطفال)

وأكثر من ٩٠٪ من الأطفال يستخدم هذا الجهاز بانتظام فى سن السادسة (وهى سن المرحلة الابتدائية فى السنة الأولى) .

وإذا ما قارنا بين استخدامهم للتلفزيون واستخدامهم لأية وسائل إعلامية أخرى لوجدنا أن التلفزيون فى المقدمة فمثلا فى سن الثالثة

يشاهد الطفل ٤٥ دقيقة يوميا ، كذلك فإن ٩٠٪ من الأطفال يعرفون « التلفزيون » حتى المعرفة قبل أن يقرأوا أول صحيفة .

٨٠٪ من الأطفال يتعرفون على « التلفزيون » قبل أن يتعلموا فى المدرسة نطق أى كلمة مكتوبة .

٦٦٪ من الأطفال يتعودون على المشاهدة قبل أن يذهبوا إلى « السينما » هذه الحقائق تشير إلى أن هذا الجهاز يحتكر وقتا كبيرا من وقت أطفالنا ويصل إليهم قبل أية وسيلة أخرى .

وتشير نتائج أحد الأبحاث التى أجريت لمعرفة كم من الزمن يقضيه الطفل مع التلفزيون فوجدوا الآتى :

ـــ الطفل الذى فى سن الثالثة يقضى ٤٥ دقيقة فى المشاهدة فى الأيام العادية وتزداد هذه المدة مع كبر السنْ حتى تصل الى ساعتين ونصف فى سن الخامسة .

ـــ وفيما بين الخامسة الابتدائية والثانية الاعدادية تزيد مدة المشاهدة حتى تصل إلى أكثر من ثلاث ساعات ..

والأرقام السابقة الذكر لها دلالات خطيرة .. فمعناها أن الطفل خلال سنوات تعلمه فى المدرسة يقضى مع التلفزيون ٥٪ من الزمن الذى يقضية فى المدرسة ومن سن الثالثة الى السادسة عشر يبلغ مجموع الزمن الذى يقضية الطفل مع التلفزيون أكثر من الذى يقضية فى المدرسة ، ويقول الباحثان : شرام وباركر .. ان الطفل يقضى من وقته فى مشاهدة التلفزيون زمنا أطول من الذى يستغرقه فى أى نشاط آخر إلا النوم واللعب ..

والغريب أن الباحثين وجدوا أن أكثر الأطفال مشاهدة للتلفزيون هم الذين رزقوا ذكاء أقل من غيرهم .. لأن الأكثر ذكاء يتحول إلى القراءة وإلى الكتاب وإلى أشياء آخرى نافعة ..

ويلاحظ أن ٥٠٪ من الأطفال يشاركون الكبار فى مشاهدة برامج التلفزيون فى الفترة الأولى من السهرة وهنا أيضا ممكن الخطورة الذى يجب أن يراعيه التلفزيون ، وهذا يبدى الكثير من الآباء مخاوفهم من الأنطباعات التى تحدثها برامج العنف والجريمة على عقول أبنائهم الصغار ، وكلما زادت ثقافة الوالدين كلما كان خوفهم أكبر على أولادهم من هذا الجهاز ..

والحقائق والأرقام السالفة الذكر تقول لنا أن التلفزيون يقتطع بعض الوقت المخصص للعب لأن فى برامجه ما يشبع نفس الرغبات التى يجنيها الطفل عن طريق اللعب[١] ..

ويرى كثير من الباحثين أنه من الصعب أن نشير إلى عمل سلوكى محدد منسوب إلى طفل ما ونقول أن هذا السلوك بسبب مشاهدة التلفزيون ..

ونحن نرى أن فى هذا الرأى كثيرا من التجنى وعدم الواقعية ، فمن خلال زيارتى لدار الأحداث فى الجيزة ، وجدت أكثر من حالة لأطفال ارتكبوا جنايات عقب مشاهدتهم لأفلام يعرضها التلفزيون ... ويحفل الكثير من كتب الدراسات الإعلامية بالعديد من القضايا التى تؤكد تأثير التلفزيون على الطفل .

---

(١) المصدر السابق .

كذلك فإننا نتفق مع الرأى القائل بأن الطفل الذى يشاهد أحد البرامج ، ويتعلم منها ــ مثلا ــ كيفية ارتكاب جريمة سرقة ، وقام بها فعلا ، فإن هذا الطفل بلا شك ــ غير طبيعي ، يختلف عن غيره من الأطفال فى خصائص نفسية كثيرة .. وأن لديه الاستعداد أصلا ...ثم قد ساعده على ذلك ما يراه فى التلفزيون ..

وهنا ممكن الخطورة .. حين يقوم التلفزيون بدور الباعث أو المثير .. ، فمهما حاول رجال الإعلام أن يخففوا من تأثير التلفزيون على الطفل فإننا نقول بدلا من ذلك . ابحثوا كيف ننقى هذا الجهاز من الشوائب التى يعرضها ..

ومن الآثار السيئة للتلفزيون أنه يسبب ارهاقا لعين الطفل . نتيجة استمرار تركيز البصر على الصورة ، وذلك نتيجة عدم فهم الطفل للجلسة الصحية الصحيحة أمام التلفزيون ، أو حين تتم المشاهدة فى حجرة مظلمة حيث يزيد ذلك من حدة الضوء الذى تستقبله العين ، ومن هنا وجب على الآباء أن يعلموا أولادهم القواعد الصحية للمشاهدة ومن الآثار السلبية أيضا أنه يعود الطفل على السهر والنوم متأخرا مما يجعله متوترا عندما يستيقظ مبكرا ، وينام أثناء الدرس فى المدرسة .. ومن أخطر الآثار السلبية أيضا أنه ثبت بالفعل ــ أنه يعلم الطفل العنف وينمى استعداده للجريمة ، وكما يقولون إذا كان السجن هو الكلية التى تخرج المجرمين ، فإن برامج العنف هى المدرسة الإعدادية التى تبذر بذور الشر فى نفس الطفل ..

وتشير الأحصائيات التى أجريت فى الولايات المتحدة إلى أن التلفزيون يساعد على انحراف الأحداث ، حيث أنه خلال السنوات

العشر الأخيرة التى أنتشر فيها التلفزيون زاد عدد الجرائم لدى الأحداث الى أكثر من الضعف ..

ويشجع التلفزيون على الانطوائية لدى الطفل نتيجة عدم التفاعل مع أسرته أو بين أفراد الأسرة فهم دائما صامتون — إلا فيما ندر — وهم يشاهدون التلفزيون ، وبعد المشاهدة يكونون قد تعبوا ولا توجد رغبة فى الحديث أو المناقشة ..

وتأتى خطورة تأثيرات هذا الجهاز فى كونها لا تحدث مباشرة أو فى ساعتها وإنما تأتى بعد مدة طويلة وتأثيرها تراكمى وعلى المدى البعيد .. وهذا القول يتفق مع رأيك تماما أيتها الأخت » .

***

فى شهر فبراير عام ١٩٧٦ م نشرت إحدى الصحف الألمانية مقالا جاء فيه أن فتاتين لا يتجاوز عمرهما (١٢) عاما التقتا بصبى غريب عنهما فقتلتاه ، وعندما سئلتا عن السبب الذى دفعهما إلى ذلك أجابتا بأنهما ترغبان فى معرفة ما هو القتل .. ؟..

وتبين للمحقق أنه فى الليلة السابقة لارتكاب الجريمة شاهدت الفتاتان على شاشة التلفزيون فيلما فرنسيا بعنوان « فريق اللذة » كان البطل يركل زوجته بقدميه حتى ماتت فى المشهد النهائى .. وبعد ذلك أتفقت الفتاتان على ممارسة عملية القتل بنفسيهما .

وفى بعض البلاد العربية أوقفت النيابة العامة إحدى المسلسلات الإذاعية عندما أرتكب أحد الأشخاص جريمة مطابقة للجريمة الإذاعية تماما ، كما قام بعض الشباب بمداهمة أحد المقاهى فى القاهرة بالمدافع

الرشاشة على غرار ما شاهدوه على شاشة السينما .

وإذا ما أستعرضنا بعض الدراسات التى قام بها العلماء حول هذا الموضوع ، نجد الدراسة التى قام بها الدكتور « وليام بيلسون » أستاذ العلوم الاجتماعية البريطانى لمعرفة العلاقة بين مشاهدة الأطفال للعنف فى التلفزيون وبين اكتساب سلوكهم صبغة العنف فى حياتهم العملية ، ومن نتائج هذه الدراسة أن الصغار الذين يشاهدون الكثير من برامج العنف فى التلفزيون يتسم سلوكهم بالعنف بدرجة تزيد مرتين على أولئك الذين لا يشاهدون إلا القليل من هذه البرامج ، ومن نتائج الدراسة أيضا أن هناك خمسة برامج تلفزيونية تتسبب فى انتشار العنف وهى « أفلام رعاة البقر ، مباريات الملاكمة والمصارعة ، الأفلام والتمثيليات التى تظهر على الشاشة ممارسة الأشخاص للعنف ضد بعضهم بعضا ، البرامج التى يظهر فيها الصغار وهم يزاولون العنف ، وأخيرا البرامج التى تظهر العنف وكأنه سلوك طبيعى[1] » .

***

فى شهر رمضان الماظى[2] وقعت جريمة بشعة فى مدينة الاسكندرية كان التلفزيون هو المتهم الأول فيها ...

فقد نشرت صحيفة « الجمهورية » فى يوم ٢١ مايو ١٩٨٦ م ــ لمراسلها فى هذه المدينة ــ ما يلى :

---

(١) عن مجلة الأمة القطرية ــ رمضان ١٤٠٦ هـ .

(٢) ١٤٠٦ هـ .

قتل « رجب رشدى » صاحبة المنزل الذى يسكن فيه ، وأصاب أبنتها بعد طعنهما بالسكين ..؟..

ويقول المراسل فى سبب وقوع هذه الجريمة :

كانت القتيلة واسمها « سنية محمد سليم » قد طلبت من القاتل خفض صوت « التلفزيون » أثناء مشاهدته الفوازير نظرا لوجود مأتم فى شقتها التى تقع أعلى شقته ..

ولكن المتهم رفض ذلك . وقال : انه يجب مشاهدة الفوازير بهذه الطريقة .. فتطور الكلام إلى مشاجرة ، وأسرع القاتل الى احضار السكين .. وطعن « سنية » حتى لفظت أنفاسها .. وعندما جاءت أبنتها « عواطف أبو العطا » طعنها هى الأخرى ، وتم نقلها إلى المستشفى فى حالة خطيرة ..

***

ان هذه الجريمة ليست جريمة واحدة .. بل هى عدة جرائم متداخلة يدينها الإسلام واحدة بعد واحدة .

أولا :

هى جريمة قتل نفسين مسلمتين بغير الحق .

ثانيا :

هى اهدار لكل الحقوق التى أكدها الإسلام للجار مع جاره حتى لو كان هذا الجار غير مسلم ..

ثالثا :

هى استهتار بكل المشاعر الإنسانية ، والقيم النبيله التى لا يكون المسلم . مسلما إلا بمراعاتها واحترامها .

رابعا :

هى : عدوان على القانون الذى يحرم استعمال هذه الأجهزة بصورة تزعج الآخرين أيا كان موقعهم فى داخل البيت أو فى خارجه .

وأخيرا :

فإن السبب ــ الذى من أجله ــ وقعت الكارثه صفر تحركه أصفار أخرى من التفاهات والتمثيليات ، والبرامج التى تثير الغرائز والشهوات .

وهى فى النهاية جريمة قتل ضد الشعب .. وعقيدته ، وقيمه ومثله ..، وضد ماضيه وحاضره ومستقبله ..

***

أنه كما تقولين وباء .

وما لم يتدارك المسئولون هذا الأمر ويغلقوا منافذ هذا الشر ، ويوقفوا هذه البرامج على الفور .

فلسوف يتحول المجتمع إلى غابة .. غابة تتندر فيها الوحوش من همجية إنسان هذا العصر .. غابة يصبح الأمن والأمان فيها أسطورة تحكى لمن أخنى عليه الزمان والدهر .. !!

أخرجوا التلفزيون
من غرف الأطفال..

في السنوات الأخيرة أوجد انتشار التلفزيون ، هموما جديدة للوالدين ، وعلى رغم تراكم الدلائل على الأضرار الناجمة عن أدمان الجلوس أمام هذا الجهاز ومعاينة برامجه جزافا من غير تمييز ، فإننا نراه يزداد شعبية بين الأولاد .

لو كنت مسؤولا عن تربية ولد لما توانيت ، كما يفعل أكثر الوالدين ، في مراقبة البرامج التلفزيونية التي يحضرها ، ذلك لأني صرفت خمس سنوات في درس عالم الأطفال المتغير ولاحظت أن الوقت الذي يمضونه أمام التلفزيون أمر فاضح ومشين ، لأنه يعادل عدد الساعات التي يمضونها أمام المعلم أو المعلمة ، لو كنت أبا لأولاد دون الخامسة عشرة لما سمحت لهم باقتناء جهاز تلفزيوني في غرفهم لأنه يغريهم بالجلوس أمامه على الدوام .

أنا لا أدعو إلى التخلي تماما عن التلفزيون . هناك برامج تبهج الأطفال ومن الواجب ارشادهم إليها ، لكنني أحذر الأهل من إطلاق حرية أولادهم في مشاهدة أي برنامج كان ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ـــ أخاف أن يجعل منهم التلفزيون أولادا فاقدي الذوق والرصانة ، يحتقرون الكبار ويسيئون فيهم الظن .

لنذكر مثلا الإعلانات الموجهة إلى الأطفال ، التي يخشى

---

* هذا المقال نقلناه عن مجلة ريدرزد ايجست بقلم VANCT OACKARD ٢٠ أغسطس ١٩٨٣ م .

أن تحولهم مصادر ازعاج ومشاكسة للأهل . قرأت مرة عن مدير برامج للأولاد قال فى موضوع العمر المناسب للإعلان : « إذا أردت ترويج بضاعتك ، أتخذ الولد معاونا لك فى البيع . « لأنه لا يفتأ يلاحق والديه بالإلحاح حتى ينال منهما ما يريد .

الأولاد يصدقون عادة كل ما يقوله لهم الكبار ، ويخضعون خصوصا لسحر الأكاذيب التى يرويها أرباب الدعايات فى التلفزيون . فبين السن السابعة والعاشرة ، بناء على تحقيق أجرته مجلة « هارفرد بيزنس ريفيو » ، يبدأ شك الأولاد فى ما يسمعونه من أخبار وأقاويل خاطئة أو مبالغ فيها . فإذا بلغوا الحادية عشرة أو الثانية عشرة أصبحوا قليلى الثقة بالناس شديدى السخرية والوقاحة .

وتفيد الدراسات أن ما يشهده الأطفال فى التلفزيون من مؤامرات ومكايد ونماذج من المحتالين المتلاعبين بالعقول ، من شأنه أن يضعف ثقتهم الغالية بوالدين يبذلان لهم العطف والإخلاص .

٢ ــ أخاف أن يجعلهم إدمان حضور البرامج التلفزيونية جامدى الفكر محدودى الخيال .

فى مقابلة عنوانها « المعضلة الالكترونية » نشرت فى مجلة « أطفال اليوم » أعلن الكاتب وجود نوعين من الشبه بين إدمان التلفزيون وإدمان المخدرات : كلاهما ينقل صاحبه إلى عالم خيالى ، وكلاهما يحدث فيه حالة جمود وذهول .

ويلاحظ عموما أن مدمنى التلفزيون يحصلون فى امتحانات القراءة علامات دون التى ينالها زملاؤهم الأقل مواظبة على الجلوس أمام الشاشة ، فهل يدفعهم الإدمان إلى تقليل الإهتمام بوظائف الدرس البيتية ؟ هل يحد من قدرتهم على المطالعة الحرة فيضعف ثقافتهم العامة ؟

لا ريب فى أن مصاحبة التلفزيون لمدة طويلة لا تثير الفكر كالمطالعة . ومن مساوىء إدمان هذا اللهو أنه يحد من أوقات اللعب عند الولد ، واللعب ضرورى لنموه لأنه يساهم فى توسيع خياله وإزالة قلقة ، ويعطيه فرصة الاحتكاك بغيرة من الأولاد فيزيد قدرته على التعبير والمناقشة ضمن حدود الألفة ، وهذه مكاسب لا يستغنى عنها الأولاد .

٢ ــ حين ألاحظ فى الأولاد علامات القلق والأضطراب أكاد أجزم بأن التلفزيون هو المسؤول .

الشاشة المتحركة تعطى صورة مضطربة للكون . هناك من يخافون أن يؤدى الأدمان إلى أضعاف قوة الأنتباه عند الولد . وإلى ذلك يصاب دماغه بالتعب الناشىء من استغراقه فى دوامة العرض . وقد لاحظ « ت . بيرى برازلتن » وهو طبيب أطفال شهير فى كلية الطب بجامعة هارفرد ، أن الأطفال دون الخامسة من العمر يظهرون علامات تعب إذا شاهدوا البرامج التلفزيونية أكثر من ساعة فى اليوم .

أريد من التلفزيون الذى أحسبه عامل تأثير فى أولادى ، أن يكون قوة دافعة منشطة فى حياتهم ، كيف يتم ذلك ؟ يتم أولا بابعادهم عن

البرامج المهيجة ، المثيرة لسوء الظن فى الناس ، التى تسخر من موظفى الدولة وحماة القانون ، والمشحونة باعلانات مغرية للأطفال .

وكل أسبوع أراجع دليل البرامج بصحبة أولادى ونختار معا تلك التى تبدو أكثر امتاعا وفائدة .

- برامج استكشاف وتجارب علمية ونحوها .
- برامج تحرك الخيال .
- برامج ترينا جماعة من الأولاد والبالغين يشتركون فى عمل أو وظيفة .

ان عزل الصغار عن الكبار ظاهرة عصرية مقلقة .

برامج تهتم بمناقشة مشكلات النمو لدى الأولاد أو نحوها من مشكلات تهم الرأى العام ، ونلاحظ هنا أن البرامج الأخبارية تتيح لأولاد هذا الجيل أن يفهموا العالم أكثر مما فهمة أولاد الجيل الماضى .

بعد مراجعة البرامج المعروضة نقوم معا ، أنا والأولاد ، بوضع لائحة بالبرامج المختارة . فإذا كانوا تلاميذ دون الرابعة عشرة ، سمحت لهم باختيار عشر ساعات مبرمجة من اللائحة ، ساعة كل يوم ، إبتداء بالأثنين وانتهاء بالخميس ، وساعتين أيام الجمعة والسبت والأحد ، فلا أسمح لهم بأكثر من ساعة فى اليوم . واذا ألح أحدهم على مشاهدة برنامج من ساعتين فى يوم دراسى ، فإنه يحرم برنامج الليلة التالية .

فى سن مبكرة ، فى الرابعة مثلا ، يستطيع الأولاد أن يتعلموا التمييز بين الإعلانات التجارية والبرامج العادية . فأشرح لهم الغاية من الإعلانات ، وألفت انظارهم إلى ما فيها من مبالغة وتمويه .

« كما يكون الأهل يكون الأولاد » كلنا نعرف صحة هذا المثل . ولو كنت أبا لأطفال اليوم لما أسترخيت ساعات أمام الجهاز السحرى الذى ندعوه التلفزيون ، بل لفضلت تمضيه وقتى فى المطالعة وتحسين البيئة التى أعيش فيها ، وخصوصا فى ملاعبة أولادى .

عَوْدَةٌ إِلَى القِيَمِ وَالتَّقَالِيدِ الإِسْلَامِيَّةِ

فى مجموعة أخرى من الأسئلة : تقول أختنا الفرنسية المسلمة :

لقد ذكر البخارى فى حديث له :

« إن الرسول كان يصلى وهو يعتلى ركوبته فى الاتجاه الذى تقصده ناقته » .

هل يمكننى أن أستدل من هذا الحديث أنه يجوز أن أؤدى الصلاة بالطائرة أو بالعربة أثناء الطيران أو السير حتى لا أؤجل العديد من الصلوات ؟

- وفى سؤال آخر تقول هذه الأخت :

إننى أدرك بأن على المسلم أن يكون رحيما بأى مخلوق حى ، والقرآن يوصى بأن تنقل الأحمال على الحمار ، على ما أذكر ، وقد ذكر فى الحديث قصة (هارلوت) التى أنقذت نفسها عندما نزلت إلى البئر لاحضار الماء لكلب عطشان وكذلك المرأة التى ستدخل النار لأنها قيدت قطتها وتركتها تموت جوعا .

إن القسوة ضد الحيوانات ، حقيقة تثير الألم فى نفسى وكذلك أيضا الطفل الذى يريدنى أن أجمع كل القطط الضالة من الطريق وأحضرها للمنزل لرعايتها .

هل هناك سورة أخرى أو حديث يمكننى أن أتعلمها وأن أذكرها لهؤلاء الذين يؤذون الحيوانات ؟

• وفى سؤال ثالث تتساءل عن قيمة الوعود فى الإسلام ، وهل يستقيم الإخلال بها دون الإساءة إلى الله ؟

وهل السبب فى ضياع الوقت يمر دون عقاب (الوقت المخصص لك) وبخاصة فى الجلوس طوال اليوم فى حين أن الواجبات قد أهملت ومصالح الآخرين قد تعطلت ؟

أليس الوقت هو جوهر الحياة ؟

• وأخيرا تقول الأخت (أ ـــ ح) : لقد عرف الإسلام بأنه أنظف الأديان فى العالم ، فلابد للمرء من تأدية الصلاة خمس مرات يوميا ولا يمكنه تأديتها دون الوضوء وكذلك تأدية الصلاة بملابس نظيفة .

أننى أدرك أنه لا يمكن الجمع بين الإسلام والمسلمين ، ومع ذلك فأننى أصدم عندما أذهب للصلاة بالمسجد وأجد السجاجيد فى غاية من القذارة .

فى العام الماضى ذهبنا فى زيارة إلى جبل سيناء ووجدنا هناك مسجدا صغيرا أستخدمه السائحون الألمان كمكان للراحة يأكلون فيه شرائح الخنزير ويشربون البيرة فلم يسعنا إلا أن نقوم بنظافته ونرفع زجاجات البيرة وما تبقى من طعامهم .

اننى أرفق قصاصة من مراسل صحفية « لى موند » ، الذى أبدى فيها الصحفى دهشته من الضوضاء قائلا : « أليس هذا تلوثا » . وأخيرا وليس آخرا ، لقد شاهدت عند سفح جبل النور القريب من مكة ـــ صفحات من القرآن الكريم مبعثرة على الأرض ، وقريب منها

جيفة شاه وعندما قام زوجى بالتقاط هذه الصفحات من القران ، كان هناك مواطن يقف بالقرب منا ، لقد قال موضحا أنه ليس لديهم حاليا يمنيون « أليس من واجب كل مسلم أن يعمل على أن تكون الأماكن المقدسة وأماكن العبادة وما حولها على الأقل نظيفة ؟

ألسنا نحن الذين نعرض للخطر احتمالات دخول الناس فى الإسلام إذا كان سلوكنا عكس ما هو مطلوب منا ، وعكس ما يطالبنا به الإسلام ؟

***

فى البداية .. أرى أن نجيب أولا على السؤال الخاص بالصلاة فى القطار أو الطائرة .. كى نتفرغ بعد ذلك إلى هذه القضايا والمشكلات التى تمثل عقبة كبرى فى طريق فهم الإسلام بالنسبة لغير المسلمين وبخاصة فى بلاد متقدمة كأوربا وأميركا .

وأقول للأخت الغيورة المسلمة :

تجوز الصلاة فى السفينة سواء أكانت واقفة أم سائرة فى الماء ، فإذا كانت السفينة واقفة ، فإن الإنسان يصلى كصلاته إذا صلى على الأرض ، لأنها تكون حينئذ مستقرة وثابتة ، ولابد له حينئذ من الركوع والسجود والتوجه إلى القبلة ، وغير ذلك من شروط للصلاة .

أما إذا كانت السفينة سائرة ، فإن أمكنه ــ بلا مشقة ــ الخروج إلى الشاطىء ليصلى عليه ويعود فعل ، وان لم يتمكن من ذلك ، أو كان فيه مشقة ، صلى فى السفينة واقفا إن استطاع ، أو صلى قاعدا ان

صعب عليه الوقوف ، ويتجه فى أول الصلاة نحو القبلة ، فإذا دارت السفينة فى أثناء الصلاة بسبب سيرها أستدار المصلى وهو فى الصلاة إلى جهة القبلة بقدر استطاعته ، فإن لم يمكنه ذلك ، أو لم يستطعه ، أو شق عليه ، صلى فى أى اتجاه ، ولا يعيد صلاته .

ومثل هذا ــ أو قريب منه ــ يقال فى صلاة القطار أو الطائرة أو السيارة ، فإنه فى القطار يبدأ صلاته متجها إلى القبلة ، فإن تحرك القطار أو انحرف أو دار ، وسهل عليه أن يستدير فى صلاته نحو القبلة فعل ، وإن لم يسهل عليه صلى كما يستطيع ، دون تحول أو استدارة .

وفى الطائرة يمكنه أن يصلى واقفا أو قاعدا ، دون التزام بالتحول نحو القبلة فى أثناء الصلاة مادام ذلك غير ميسور : (يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر) .

والله تعالى أعلم .

***

نعود بعد ذلك إلى :

(أ) الإسلام .. ونظرته إلى الحيوان ، ومعاملة الإنسان لهذا الحيوان أو الرفق بهذا الحيوان .

(ب) والإسلام .. وتقييمه للوقت ، واحترامه للوعد .

(جـ) والإسلام .. واهتمامه بالنظافة واعتبارها شرطا من شروط صحة العبادة ، وركنا من أركان الحياة والحضارة .

***

ان الإسلام ينظر إلى عالم الحيوان كأمة من الأمم .

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم[١] » .

وما دام « عالم الحيوان » أمة كغيرها من الأمم فقد أوصى الإسلام بهذا الحيوان ، وقرر له حقوقا يجب أن تراعى وتلتزم .. فله حق الرفق والرحمة كحق الإنسان « الراحمون يرحمهم الرحمن[٣] » . « من أعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة[٤] » . بل ان الرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة : « بينما رجل يمشى بطريق إذ أشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له ، قالوا يا رسول الله : وان لنا فى البهائم لأجرا ؟ فقال : فى كل ذات

---

(١) سورة الأنعام ٣٨ .

(٢) أعتمدنا فى هذه الاجابة على ما كتبه المرحوم الدكتور مصطفى السباعى عن « الرفق بالحيوان » فى كتابه من « روائع حضارتنا » ص ١١٠ وما بعدها . بشىء من التصرف .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم .

(٤) رواه أحمد .

كبد رطبة أجر » .

كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[2] .

وتمضى الشريعة فى تشريع الرحمة بالحيوان ، فتحرم المكث طويلاً على ظهره وهو واقف فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تتخذوا دوابكم كراسى[3] »

وتحرم اجاعته وتعريضه للضعف والهزال . فقد مر عليه السلام ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة »[4]

كما تحرم ارهاقه بالعمل فوق ما يتحمل . دخل رسول الله بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبى حن وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله فمسح دموعه ، ثم قال : من صاحب هذا الجمل ؟ فقال صاحبه : أنا يا رسول الله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتدئبه[5] (أى تتعبه بكثرة استعماله) .

كما تحرم التلهى به فى الصيد « من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول : يارب أن فلاناً قتلنى عبثاً ولم يقتلنى منفعة[6] . واتخاذه هدفاً لتعليم الاصابة ، فقد « لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً[7] (أى هدفاً)

---

(١) أخرجة البخارى ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم .
(٣) رواه أحمد والحاكم .
(٤) رواه أبو داود وابن خزيمة .
(٥) رواه أحمد وأبو داود .
(٦) رواه النسائى وابن حبان .
(٧) رواه البخارى ومسلم .

وتنهى عن التحريش بين الحيوانات ، ووسمها فى وجوهها بالكى والنار (أى كيها لتعلم من بين الحيوانات الأخرى) فقد « مر الرسول على حمار قد وسم فى وجهه ، فقال : لعن الله الذى وسمه[1] » . أما إذا كان الحيوان مما يؤكل ، فإن الرحمة به أن تحد الشفرة ، ويسقى الماء ، ويراح بعد الذبح قبل السلخ : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته[2] » .

بل أن أضجاع الحيوان للذبح قبل إحداد الشفرة قسوة لا تجوز ، أضجع رجل شاة للذبح وهو يحد شفرته ، فقال له عليه السلام : « أتريد أن تميتها موتات ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها »[3] .

وقال عبدالله بن مسعود : « كنا مع رسول الله فى سفره ، فرأينا حمرة (طير يشبه العصفور) ، فلما جاء رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ، ردوا ولدها إليها . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار »[4] .

وعلى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال . فهم يقررون أن النفقة على الحيوان

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه مسلم وأبو داود ومالك والترمذى .

(٣) رواه الطبرانى والحاكم .

(٤) أخرجه أبو داود .

واجبة على مالكه ، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه ، أو تسيبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه ، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل .

وقد ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا ، فقال بعضهم : إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الإنصراف . ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق ، ورتبوا على هذا نتائج حقوقية فى حق من استأجر حيواناً للحمل أو الركوب فحمله أكثر مما يستطيع ، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه ، وتعرضوا لمقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله ، ومن الطريف أن بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقدارا لم يرض فقيها آخر ، فعقب على ذلك بقوله : لعمرى أن هذا انصاف للبغل واحجاف كبير بالحمار . أما جناية الحيوان على غيره ، فهى جبار ، أى مهدرة ، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره ، وإنما يعاقب صاحبه إذا فرط فى حفظه وربطه .

هذه هى مبادىء الرفق بالحيوان فى حضارتنا وتشريعنا . فكيف كان الواقع التطبيقى لها ؟ ...

بينما رسول الله فى بعض سفره ، إذ سمع امرأة من الأنصار تلعن ناقة لها وهى تركبها ، فأنكر ذلك عليها وقال « خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة » ، وأخذت الناقة وتركت تمشى فى الناس لا يعرض لها أحد[1] .

---

(١) رواه مسلم .

ومر عمر برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له : ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً ...

وهكذا كان طابع حضارتنا رفقاً بالحيوان وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية .

أما عناية الدولة فليس أدل على ذلك من أن خلفاءنا كانوا يذيعون البلاغات العامة على الشعب يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان ومنع الأذى عنه والأضرار به .

فقد أذاع عمر بن عبد العزيز في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حق .

وكتب إلى صاحب السكك (وهي وظيفة تشبه مصلحة السير) أن لا يسمحوا لأحد بإلجام دابته بلجام ثقيل أو أن ينخسها بمقرعة في أسفلها حديدة .

وكان من وظيفة المحتسب (وهي تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر) أن يمنع الناس من تحميل الدواب فوق ما تطيق ، أو تعذيبها وضربها أثناء السير ، فمن رآه يفعل ذلك أدبه وعاقبه : « ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة ، ولا يحملون الدواب أكثر من طاقتها ، ولا يسوقونها سوقاً شديداً تحت الأحمال ، ولا يضربونها ضرباً قوياً ، ولا يوقفونها في العراص (الساحات العامة) وعلى ظهورها أحمالها ، فإن هذا كله نهت الشريعة المطهرة عن فعله . وعليهم أن يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها ، ويكون موفراً عليها بحيث يحصل به الشبع ، ولا يكون مبخوساً ولا نزراً » .

وأما المؤسسات الاجتماعية فقد كان للحيوان منها نصيب كبير . وحسبنا أن نجد فى ثبت الأوقاف القديمة أوقافاً خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة ، وأوقافاً لرعى الحيوانات المسنة العاجزة .

بل نسمع أن صحابيا جليلا كأبى الدرداء يكون له بعير فيقول له عند الموت : يا أيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك .!

وأن صحابيا كعدى بن حاتم كان يفت الخبز للنمل ويقول : انهن جارات لنا ولهن علينا حق .

وأن أماما كبيرا كأبى أسحق الشيرازى كان يمشى فى طريق ومعه بعض أصحابه ، فعرض له كلب فزجره فنهاه الشيخ وقال له : أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه ؟!

ولا نستطيع أن نقدر هذه الظاهرة البارزة فى حضارتنا وموقفها الإنسانى الكريم مع الحيوان ، إلا إذا علمنا كيف كان يعامل الحيوان فى العصور القديمة والوسطى ، وكيف كان موقف الأمم منه ومن جناياته وتعذيبه .

وأول ما يلفت النظر فى ذلك أنك لا تجد فى تعاليم تلك الشعوب ما يحمل على الرفق بالحيوان ووجوب الرحمة به . ومن ثم فلا تجد له حقوقا على صاحبه من نفقة ورعاية .

ويلفت النظر بعد ذلك أخذ الحيوان بجنايته إذا جنى أو جنى صاحبه ، ومعاملته فى المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر .. وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ العصور القديمة والوسطى حتى القرن

التاسع عشر ، فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الإنسان ، ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت كما يحكم على الإنسان الجانى تماما ..

ففى شرائع اليهود « إذا نطح ثور رجلا أو أمرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح ، وجب رجم الثور ، وحرم أكل لحمه ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتادا النطح . فإذا كان ذلك من عادته ، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم وأهمل رقابته حتى تسبب فى هلاك رجل أو امرأة ، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الإعدام . وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان فى شرائع اليهود وهى ما إذا واقع رجل أو أمرأة بهيمة وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معا .

وفى شرائع قدماء اليونان . كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة فى هلاك إنسان ، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم (البريتانيون) وهو اسم المكان الذى كانت تعقد الجلسات فيه .

أما قدماء الرومان ، فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضى بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبة إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له . وأقرت عقوبة الكلب الذى يعض انسانا بوجوب التخلى عنه للمعضوض يتصرف فيه كما يشاء ، وكذلك إذا رعى الحيوان عشبا غير مملوك لصاحبه .

وكذلك الحال عند قدماء الجرمان من عقوبة الحيوان كما كان عند الرومان واليونان أما عند قدماء الفرس فالأمر فيها أعجب وأطرف . ذلك أن الكلب المصاب بالكَلَب إذا عض خروفا فقتله ، أو انسانا

فجرحه ، تقطع اذنه اليمنى ، فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى ، وفى المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى ، وفى الرابعة تقطع رجله اليسرى ، وفى الخامسة يستأصل ذنبه ..

وعند الأمم الأوروبية فى العصور الوسطى ، كانت فرنسا أول أمة أوروبية مسيحية أخذت فى القرن الثالث عشر بمبدأ مسؤولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التى يحاكم فيها الإنسان . ثم أخذت به سردينيا فى أواخر القرن الرابع عشر . ثم بلجيكا فى أواخر القرن الخامس عشر ، وفى هولندا وألمانيا وايطاليا والسويد فى منتصف القرن السادس عشر ، وظل العمل به قائما عند بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر ..

كانت محاكمة الحيوان عند الأوروبيين تقوم على إدعاء المجنى عليه أو النيابة العامة ، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم ، وقد تقضى المحكمة بحبس الحيوان احتياطيا .. ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ فى الإنسان . وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجما أو بقطع رأسه أو بحرقه أو بقطع بعض أعضائه قبل اعدامه .

***

وجدير بنا أن نذكر بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات عند الأوروبيين فى القرون الوسطى . فمن أطرف المحاكمات وأشهرها ، محاكمة الفئران فى بلدة أوتون بفرنسا فى القرن الخامس عشر . فقد أتهمت الفئران فى هذه القرية بالتجمهر فى الشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة . وتقدم للدفاع عنها « شاسانيه » المحامى الفرنسى

وطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز ، وهى تستطيع أن تستعد للمثول بين يدى المحكمة إذا منحت فرصة التأجيل ، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين ، ولما حان الوقت لم تحضر الفئران ، فقال محامى الدفاع للمحكمة : ان الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ، وتود الحضور ، ولكنها يا حضرات القضاة تخشى وقوع الأذى عليها من القطط أن هى جاءت إلى هنا . فرد رئيس المحكمة قائلا : ان من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم . فطلب المحامى أن تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران فى الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها ، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته ، وأصدرت أمرا بمنع القطط والكلاب من المرور فى الشوارع تأمينا للفئران أثناء حضورها إلى قاعة المحكمة . ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة الى أن تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة .. وقد نال المحامى بسبب هذه القضية شهرة ذائعة ، ولا ندرى أن كان قد أخذ اتعابه من الفئران أم لا ، وربما كانت أتعابه أن تتعهد له الفئران بعدم قرض كتبه وأوراقه .. !!

***

ومن أغرب قضايا محاكمة الحيوان فى القرون الوسطى محاكمة الديك الذى باض . فقد رفعت دعوى على ديك فى مدينة بال بسويسرا عام ١٧٧٤ لأنه باض ، وذلك فى عرف الأوربيين يومئذ جريمة شنيعة ، إذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها فى أغراضهم الشيطانية ، وقدم الديك

للمحاكمة ، ودافع محاميه عنه بقوله : كيف يكون الديك مسؤولا عن واقعة لا حيلة له فيها ؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية محامى الدفاع ، بل أصدرت حكمها بإعدام الديك ، وعللت حكمها بقولها : ليكون فى ذلك عبرة لغيره من الديكة ؟..

***

وفى عام ١٤٩٥ وقعت قضية أخرى فى فرنسا هى من أغرب المحاكمات الحيوانية أيضا . فقد رفع أصحاب مزارع العنب فى مقاطعة « سان جوليان » دعوى على حشرات السوس بتهمة أنها أتلفت كرومهم وقضت على أشجارهم وصناعتهم وتجارتهم ، وتولى الدفاع عن هذه الحشرات أثنان من كبار رجال القانون ، وأستمرت القضية أربعين عاما أنتهت بأن أصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على إقطاع السوس قطعة أرض خاصة ليأكل فيها ما يشاء من زروع وأشجار(١) .

***

وتسألين ــ أيتها الأخت ــ عن الوقت وقيمته فى شريعة الإسلام .. وإنه لسؤال يثير فى القلب غصة .. ويدين المسلم المعاصر بالسفه والبله ..، والبلادة ..

فحيثما اتجهت هنا وهناك تجدين ملايين الكسالى والشاردين عن هذه الحقيقة .. حقيقة الحياة التى تبدد فى المقاهى ، والملاهى ، وعلى الأرصفة ، وحقيقة الزمن التى يلفها الضياع والحسرة والندامة ..

---

(١) أنتهى من كتاب « من روائع حضارتنا » للمرحوم الشيخ الدكتور مصطفى السباعى .

ومن العجيب .. أن ظاهرة انتشار المقاهى فى بلادنا المسلمة ليس لها نظير فى بلاد العالم .. والأكثر من ذلك عجبا أن معظم المترددين على هذه المقاهى ممن يشغلون وظائف تتصل بمصالح الناس ورفع المظالم .. وهى ظاهرة تسىء الى المجتمع المسلم فى أية دولة ، وتسىء إلى الإسلام كمنهج حياة وعقيدة . كما تسىء إلى الفرد المسلم وتصفه بالعجز والتواكل والأنانية .

***

ان موقف الإسلام صريح وواضح تجاه هذه الظاهرة وشرائع الإسلام وأحكامه تدين هذه الجريمة التى استشرى خطرها فى العالم الإسلامى كله .

يقول نبينا « ﷺ » :

- ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى : ياابن آدم : أنا خلق جديد . وعلى عملك شهيد . فتزود منى فانى لا أعود إلى يوم القيامة ..
- وكان من دعاء الرسول « ﷺ » : اللهم أجعل يومنا خيرا من أمسنا ، وغدنا خيرا من يومنا ..

وكما يقول ربنا عز وجل :

- « ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .
- ويقول عز وجل : يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

ويقول عز وجل :

« وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » .

***

ولأن الوقت هو أغلى وأثمن ما منحه الله من نعم .. نرى الله عز وجل يقسم بهذا الوقت فى سور مختلفة من القرآن الكريم تعظيما لشأن الزمن والوقت فى حياة كل مسلمة ومسلم ..

يقول عز وجل :

والفجر وليال عشر — والشمس وضحاها — والنهار إذا تجلى — والضحى والليل اذا سجى — والعصر ان الانسان لفى خسر .

- لقد أقسم الله بسورة العصر لما فيها من الإرشاد والتوجيه بمنافع الزمن . حتى لقد قال الإمام الشافعى فى فضل هذه السورة : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم .
- ذلك لأن سبيل السعادة فى هذه الحياة إنما هو : الإيمان والعمل الصالح . ولأن المسلم لم يخلق لنفسه .. بل خلق للناس جميعا .. المسلم منهم وغير المسلم كان من طبيعة المسلم الحق الايمان الحق ، والعمل الصالح بمقتضى هذا الإيمان الحق ، وأن يوصى غيره ويدعوه إلى الإيمان الحق ، وأن يوصى هذا الغير بالصبر على تبعات هذا الإيمان الحق . كل هذا لتعيش البشرية فى سعادة وحب ، وأن يعتصم الناس بالعروة الوثقى التى لا يعتريها ضعف ولا شك .

***

فإذا ضعف الإيمان فى القلب ، وعم الفساد والانحراف فى الأرض واختفى التناصح بين أفراد الشعب ، وحل الجزع والهلع مكان التجلد والصبر خسرت الإنسانية وخسر الإنسان كل شيء .

- لهذا روى الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب .. أن الرجلين من أصحاب رسول الله « ﷺ » كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر .
- وقد أقسم الله بالعصر لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة الله سبحانه ، وعلى عظيم سلطانه . الذى يصرف الإنسان كما يشاء من الصحة إلى المرض ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن الذل إلى العز ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن الحياة إلى الموت .
- وتلك الأيام نداولها بين الناس . "وليعلم الله الذين آمنوا . ويتخذ منكم شهداء .. » .
- لذلك نعى القرآن على الغافلين غفلتهم عن هذه الحقيقة وسلخهم بهذه الغفلة عن إنسانيتهم الرفيعة .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » .

***

- لذلك كان سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يكثر من هذا الدعاء الذى يقول فيه : اللهم لا تدعنا فى غمرة ، ولا تأخذنا على غرة ولا تجعلنا من الغافلين .

● وكانت وصيته إلى سيدنا عمر « رضى الله عنه » قبل أن يودع هذه الدنيا : « .. إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل .. إلى أن قال :

فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك .

وأن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت .. ولست بمعجز الله ..

***

من يعشْ يكبرْ ومن يكبرْ يمت
والمنايا لا تبالى من أتتْ
نحن فى دار بلاءٍ وأذى
وشقاءٍ وعناءٍ وعنتْ
منزل ما يثبت المرء به
سالما إلا قليلا أن ثبتْ

***

● لذلك كان الإهتمام بالزمن والوقت فى رأس الوصايا والأوامر التى نبه نبينا إليها ، ودعا أمته الى الالتزام والأخذ بها .

يقول رسول الله « صلى الله عليه وسلم » :

ابن آدم :

● اغتنم خمسا قبل خمس :

شبابك قبل هرمك
وصحتك قبل سقمك
وفراغك قبل شغلك
وحياتك قبل موتك
وغناك قبل فقرك

- ويقول « ﷺ » :

حاسبوا (أنفسكم) قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ..

وقال عليه الصلاة والسلام :

- الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله المغفرة .

- وقال « ﷺ » :

إعمال لدنياك بقدر مقامك فيها ، وأعمال لآخرتك بقدر بقائك فيها ، واعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها .

وقال أيضا :

- لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه .

***

• قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

أيها الناس : انكم لم تخلقوا عبثا . ولم تتركوا سدى . وإن لكم معادا يحكم الله بينكم فيه .

فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شيء ومن جنة عرضها السموات والأرض .

وأعلموا أن الأمان غدا .. لمن خاف اليوم ، وباع قليلا بكثير وفانيا بباق . ثم انكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله . قد قضى نحبه وبلغ أجله . ثم تغيبونه فى شق من الأرض .. قد خلع الأسباب .. وفارق الأحباب .. وواجه الحساب .. غنيا عما ترك فقيرا إلى ما قدم .

أما وأيم الله إنى لا أقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى .

وأستغفر الله لى ولكم .

***

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر ... وإنما صفوه بين الورى لمعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ما شان أخلاقه حرص ولا طمعُ
وكيف يدرك مافى الغيب من حدث ... من لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دهر يغر وآمال تسر وأعـ ... ـمار تمر وأيام لها خدعُ
يسعى الفتى لأمور قد تضر به ... وليس يعلم ما يأتى وما يدعُ
يا أيها السادر المزور من صلف ... مهلا فانك بالأيام منخدعُ
دع مايريب وخذ فيما خلقت له ... لعل قلبك بالايمان ينتفعُ
إن الحياة لثوب سوف تخلعه ... وكل ثوب إذا مارث ينخلعُ

***

والوفاء بالوعد من شرائع الإسلام ومن واجبات المسلم الجديرة بالاحترام والالتزام .. عن عبد الله بن أبي الحمساء قال :

« بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية[1] ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث[2] فجئت ، فإذا هو في مكانه فقال ﷺ :

(يا فتى : لقد شققت على أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك[3]) .

والوفاء من الصفات الطيبة التي تجعل الوفي موضع الثقة وتكسبه النجاح والظفر .

وهو من الصفات التي يفخر بها المتمدنون ، ويعدونه من أسباب رقي المجتمع وتقدمه .

والإسلام يوجبه ويفرضه ، فإذا وعد أحد وعدا وأخلفه دون أن يكون له عذر فهو آثم ، ومتصف بصفة من صفات النفاق .

ولما حضر عبد الله بن عمر الوفاة قال :

انه خطب الى ابنتي ، رجل من قريش ، وقد كان مني اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . أشهدكم أني قد زوجته ابنتي .

وهو يشير بذلك الى قول رسول الله ﷺ :

(ثلاث من كن فيه . فهو منافق ، وان صام وصلى ، وزعم أنه

---

(١) بقية من ثمن البيع .

(٢) أي ثلاث ليال : أي أنه انتظره ثلاث ليال وفاء بالوعد الذي وعده .

مسلم . من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

***

أما عن النظافة ، واهتمام الإسلام بها ، ودعوته إليها فهذا كله من البديهيات والفرائض التى أصبحت معلومة من الدين بالضرورة ..

ليس هناك دين يلزم اتباعه بالطهارة والنظافة كدين الإسلام .

فالطهارة . طهارة الجسم وطهارة الثوب ، وطهارة القلب ، وطهارة المكان شرط من شروط صحة الصلاة .

وقد جاء فى الحديث الذى رواه مسلم عن النبى « ﷺ » : أن « الطهور شطر الإيمان » ولك أن تتصورى أيتها الأخت .. ماذا تجلب القذارة على المسلم حيث تذهب بنصف دينه وتبطل بها عبادته ، وتجعل سعيه وعمله هباء لا فائدة منه فى دين ولا دنيا ، وسوف تجدين هذا الشرط « شرط الالتزام بالنظافة » قانونا عاما فى حياة المسلم كلها . وفى كل مظاهر هذه الحياة جميعا فى البيت أو فى المسجد ، فى الطريق العام أو فى المكتب ، وفى سلوكه الخاص كفرد أو فى تصرفه العام كعضو فى الأسرة والأمة والمجتمع .

فقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام ، بعد أن ندب الى الوضوء له — ويكفى فيه غسل الأيدى — أمر بأن يتخلص الإنسان من فضلاته وروائحة وآثاره ، وهذا أنقى للمرء وأطيب .

روى عن رسول الله « ﷺ » : « بركة الطعام الوضوء قبله

والوضوء بعده(١) .

وهذه النظافة المطلوبة يتفاوت الحث عليها بإختلاف بقايا الطعام المتخلفة على البدن . فإذا تسربت هذه البقايا فى الأماكن المتوارية كان حقا على المسلم أن يتطهر منها .

قال رسول الله ﷺ : « تخللوا . فإنه نظافة تدعو إلى الإيمان ، والإيمان مع صاحبه فى الجنة(٢) » .

وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام فى هدى النبى « ﷺ » . فعن أبى أيوب قال : خرج علينا رسول الله « ﷺ » فقال : « حبذا المتخللون من أمتى . قالوا : وما المتخللون يا رسول الله ؟ قال : المتخللون فى الوضوء ، والمتخللون من الطعام . أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع .

وأما تخليل الأسنان فمن الطعام « إنه ليس شيء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاما وهو قائم يصلى(٣) » .

وعناية الدين بتطهير الفم ، وتجلية الأسنان ، وتنقية ما بينها لا نظير لها فى وصايا الصحة القديمة ، والحديثة .

قال رسول الله ﷺ : « تسوكوا ، فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، ما جاءنى جبريل إلا أوصانى بالسواك ، حتى لقد

---

(١) أبو داود .

(٢) الطبرانى .

(٣) أحمد .

نقلا من كتاب خلق المسلم .

خشيت أن يفرض علىّ وعلى أمتى[1] » .

وفى رواية : « لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل علىّ فيه قرآن أو وحى » .

والأطعمة ذات الروائح النفاذة كاللحم والسمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمالها ، فإن التنظيف منها ضرورة لحفظ الصحة ، وضرورة لحفظ الكرامة الخاصة ، والآداب العامة .

قال رسول الله ﷺ : « من بات وفى يده ريح غمر فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه[2] » والغمر زهومة اللحم .

وقد وردت آثار تفيد أن الجراثيم إنما تجد مرتعها الخصب فى الأيدى والأفواه القذرة ، وأوصت بالتحرز من غوائلها .

ومن احترام الاسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثوما أو بصلا أو فجلا أن يحضر المجتمعات ، ذاك أن نتن الأفواه من هذه الأطعمة يؤذى المخاطبين وينفر من آكلها .

وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة فى المسجد عمن تناول هذه المواد ، كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة ، وهذا الأدب الكريم صيانة محمودة للمرضى والأصحاء .



---

(١) ابن ماجه .

(٢) البزار .

ويوصى الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة ، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد[1] ».

وكان رسول الله ﷺ يعلم المسلمين أن يعنوا بهذه الأمور ، وأن يلتزموها فى شئونهم الخاصة حتى يبدو المسلم فى سمته وملبسه وهيئته جميلا مقبولا .

قال رسول الله ﷺ : « من كان له شعر فليكرمه[2] » .

وعن أبى قتادة قلت : يا رسول الله .. ان لى جمة أفأرجلها ؟ قال : « نعم وأكرمها .. » فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين ، من أجل قول رسول الله ﷺ[3] . فتسريح الرأس سنة حسنة وتعطيره كذلك .

وعن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبى ﷺ ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه الرسول ، كأنه يأمره باصلاح شعره ، ففعل ثم رجع ، فقال رسول الله : « أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان[4] » .

وعن جابر بن عبد الله : « رأى النبى ﷺ رجلا رأسه شعث فقال : « أما وجد هذا ما يسكن به شعره[5] » ورأى آخر عليه ثياب

---

(١) الأعراف : ٣١ .

(٢) أبو داود .

(٣) النسائى .

(٤) مالك .

(٥) أبو داود .

وسخة ، فقال :

« أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه » ؟

أن الأناقة فى غير سرف ، والتجمل فى غير صناعة وتزويق ، وإحسان « الشكل » بعد إحسان « الموضوع » من تعاليم الإسلام ، الذى ينشد لبنيه علو المنزلة وجمال الهيئة .

قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبة مثقال ذرة كبر ، فقال رجل : ان الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : ان الله تعالى جميل يحب الجمال[1] » .

وفى رواية أن رجلا جميلا أتى النبى ﷺ فقال : أنى أحب الجمال ، وقد أعطيت منه ما ترى . حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل ، أفمن الكبر ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لا .. ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

وكان رسول الله ﷺ دقيق الملاحظة فى هذه الناحية فإذا رأى مسلما يهمل تجميل نفسه وتنسيق هيئته نهاه عن الاسترسال فى هذا التبذل وأمره بأن يرتدى ألبسة أفضل .

عن جابر بن عبد الله : « نظر رسول الله ﷺ إلى صاحب لنا يرعى ظهرا لنا .. وعليه بردان قد أخلقا . فقال رسول الله ﷺ : أما له غير هذين ؟ فقلت : بلى ، له ثوبان : فقال : أدعه فليلبسهما . فلبسهما : فلما ولى قال رسول الله : ماله ؟ــ ضرب الله عنقه ــ

---

(١) مسلم .

أليس هذا خيرا ؟ فسمعه الرجل ، فقال : فى سبيل الله يا رسول الله .. فقال : فى سبيل الله .. فقتل الرجل فى سبيل الله(١) .

وبعض محترفى التدين يحسبون فوضى الملبس واتساخه ضربا من العبادة ، وربما تعمدوا ارتداء المرقعات والتزيى بالثياب المهملة ليظهروا زهدهم فى الدنيا وحبهم للأخرى . وهذا من الجهل الفاضح بالدين ، والافتراء على تعاليمه .

حدثنا ابن عباس قال : « لما خرجت الحرورية أتيت عليا رضى الله عنه فقال : ائت هؤلاء القوم : فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن ، فلقيتهم فقالوا : مرحبا بك يا ابن عباس . ما هذه الحلة .. ؟ قلت : ما تعيبون على .. لقد رأيت على رسول الله « ﷺ » أحسن ما يكون من الحلل(٢) .

***

وعن البراء : كان رسول الله ﷺ مربوعا : وقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئا أحسن منه قط(٣) .

وقد أمتد هذا التطهير والتجميل من أشخاص المسلمين إلى بيوتهم وطرقهم فإن الإسلام نبه إلى تخليه البيوت من الفضلات والقمامات . حتى لا تكون مباءة للحشرات . ومصدرا للعلل : وكان اليهود يفرطون فى هذا الواجب فحذر المسلمون من التشبه بهم .

---

(١) مالك .

(٢) أبو داود .

(٣) مسلم .

روى أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود[1] » .

واماطة الأذى عن الطريق من شُعب الإيمان : وقد اعتبر هذا العمل الخفيف الجليل صلاة مرة ، وصدقة مرة أخرى .

ففى الحديث : حملك عن الضعيف صلاة . وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاة[2] .

وفى حديث آخر : « ... بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة[3] » .

أى إزالة الأذى من حجر أو شوك أو نجاسة أو ما شابه ذلك .

وإذا كان القرآن يأمرنا أن نأخذ بالزينة عند كل مسجد فإن المسلمين عمموا هذا الحكم فى كل مكان غير المسجد لأن الأرض كلها من وجهة نظر الإسلام « مسجد » وطهارتها أو تطهيرها مظهر من مظاهر الاحترام والتقدير لكل مسجد ولم تكن الحضارة الإسلامية فى جمالها ورونقها إلا تطبيقا لهذا القانون والمبدأ .. مثلا ..

« ... كانت قرطبة فى عهد عبد الرحمن الثالث الأموى عاصمة الأندلس[4] المسلمة ، تنار بالمصابيح ليلا ويستضىء الماشى بسرجها

(١) الترمذى .

(٢) ابن خزيمة .

(٣) البخارى .

(٤) نقلا من كتاب « من روائع حضارتنا » للمرحوم الدكتور الشيخ مصطفى السباعى ص ١٨٥ وما بعدها .

عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء (أى ستة عشر كيلو مترا) ، أزقتها مبلطة ، وقماماتها مرفوعة من الشوارع ، محاطة بالحدائق الغناء حتى كان القادم إليها يتنزه ساعات فى الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها ، كان سكانها أكثر من مليون نسمة (فى ذلك العصر لم تكن فيه أكبر مدينة فى أوروبا تزيد عن خمسة وعشرين ألفا) وكانت حماماتها تسعمائة حمام وبيوتها ٢٨٣٫٠٠٠ بيت وقصورها ثمانون ألف قصر ومساجدها ستمائة مسجد ، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ (أى ثلاثين ألف ذارع) . كان كل من فيها متعلما ، وكان فى ربضها الشرق مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا فى ناحية واحدة من نواحيها ، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجانا وخمسون مستشفى . وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة فى الفن والإبداع . كان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعا تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور ، وتستند إلى ١٠٩٣ من الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة الشطرنج فيتألف منها تسعة عشر صحنا طولا وثمانية وثلاثون صحنا عرضا ، وكان يضاء فى الليل بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح تستنفد فى كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت ، وترى فى وجهه الجنوبى تسعة عشر بابا مصفحا بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب الوسط الذى كان مصفحا بألواح من الذهب ، وترى فى كل من وجهه الشرقى والغربى تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب ، أما محرابه فحسبك أن يقول فيه مؤرخو الفرنج « أنه أجمل ما تقع عليه عين بشر وإنه لا يرى أحسن من زخرفته وسنائه فى أى أثر قديم أو حديث » .

***

ولنتحول بعد ذلك إلى العالم الإسلامى الشرقى لنرى نموذجا من مدنه الكبرى وحضاراته الرائعة . وسأقتصر هنا على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التى لا مثيل لها فى القديم .

كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسى الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القريبة منها ، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ثم وضع بيده أول آجرة فى بنائها وقال : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال ابنوا على بركة الله ، وقد بلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مئة ألف ، وكان لها ثلاثة أسوار يلى الواحد منها الآخر . بلغ عدد سكانها مليونى نسمة ، وبلغت عدد دروبها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقى وأربعة آلاف بالجانب الغربى ، وكان فيها عدا دجلة والفرات أحد عشر نهرا فرعياً تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها وكان فى نهر دجلة وحده من المعديات (المعبرانيات) ثلاثون ألفا ، أما حماماتها فقد بلغت ستين ألف حمام ، وفى أواخر عهد العباسيين تناقص هذا العدد إلى بضعة ألف حمام ، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمائة ألف مسجد ، وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فذلك فيها ما لا يحيط به حصر[1] .



(١) من روائع حضارتنا

ولتسمح لى أختنا المسلمة أن ننتقل بها إلى الشرق الأقصى .. إلى الهند لنرى ما فعله الإسلام والمسلمون فى هذه الهند ..

يقول العلامة أبو الحسن الندوى فى كتابه « المسلمون فى الهند[1] .

« ... لقد اكتسبت الهند من المسلمين بصفة عامة توسعاً فى الخيال وجدة فى التفكير ، ومعانى جديدة فى الأدب والشعر ، لم تكن تخطر على بال لولا عملية التوليد العقلى والتلقيح الفكرى والأدبى ، وكان مما منح المسلمون الهند هذه اللغة الجميلة الواسعة التى أصبحت لغة التفاهم ولغة العلم فى الهند التى عرفت بكثرة اللغات واللهجات ، أعنى لغة « أردو » .

وكان تأثير المسلمين فى المدنية والصناعة وأساليب الحياة أبرز وأقوى منه فى نواح أخرى ، فقد أدخلوا فى هذه البلاد حياة جديدة تختلف عن الحياة القديمة فى هذا القطر ، كما تختلف الحياة فى أوربا اليوم عن الحياة فى القرون الوسطى .

وإذا أردنا أن نعرف ما أضافه المسلمون إلى ثروة هذه البلاد ومدنيتها يجب علينا أن نستعرض الهند وثروتها ومدنيتها وحاصلاتها ومرافقها ومستوى المعيشة فيها قبل أن يتمكن المسلمون من بناء مدينة جديدة وإقامة حضارة هندية إسلامية وإتحاف هذه البلاد بما عرفوه وألفوه من مرافق الحياة ورقائق المدنية ، وقد ترك لنا مؤسس الدولة المغولية العظمى ظهير الدين محمد بابر (٨٨٨ - ٩٣٩) صورة

---

(١) صفحة ١٨ وما بعدها .

واضحة عن مدنية الهند وثروتها الطبيعية والصناعية والمستوى الذى كانت عليه هذه البلاد عند غزوه لها ، ولا يخفى أن اليد الإسلامية الصناع الحاذقة ظلت تشتغل مدة قبل الهجوم المغولى ، يقول بابر فى مذكراته[1] :

« لا وجود للخيل العتاق ، ولا يوجد من الفاكهة العنب والبطيخ والأثمار الطيبة ، الثلج مفقود ، والماء البارد قليل نادر ، والحمام لا يوجد ، والمدارس لا يعرفها أهل الهند ، والمشكاوات ، والشموع لا وجود لها ، وكذلك الفوانيس ، ويستعملون مكانها خشبة ذات ثلاثة ارجل تحمل إحدى أرجلها حديدة مركبة بها ، وفى الرجل الثانية فتيلة ضعيفة ، وفى يدها اليمنى قرع (دباء) له ثقب صغير ينزل منه الزيت على الفتيلة ، وبهذه المشكاة الوسخة يستعين الملوك والأمراء عند الحاجة فى الليل .

أما الحدائق والأبنية فلا توجد فيها عيون متدفقة ومياه جارية ولا تتمتع هذه الأبنية بالنظافة والهواء والتناسب ، كانت الهند رغم خصبها وغناها ، قليلة الفواكه والثمار وأكثرها برية لم تلق العناية اللازمة حتى جاء المغول وهم أصحاب ذوق رفيع وأبناء بلاد كثيرة الفواكة والاثمار ، فأدخلوا عليها ثمارا جديدة وفواكه كثيرة يعرفها المستقصى من كتاب « توزك بابرى » و « توزك جهانكيرى » وقاموا بعملية التلقيح والتهذيب لبعض الثمار الهندية حتى جاء أشهى وألذ

(١) كتبها بابر فى اللغة التركية فى أسلوب أدبى رفيع ونقلها إلى الفارسية الأديب التركى والشاعر الكبير قائد قواد الدولة المغولية الأمير عبد الرحيم بيرم خان ، وطبعت فى بمبى (الهند) .

وألطف كما كان الشأن مع « المانجو » أشهر فواكه الهند وألذها وأفضلها فلم يكن يوجد منه الا ما ينبت بالبذر فلقحوه حتى جاء ما يسمونه فى الهند « قلمى » وكان منه أنواع فى العهد الأخير ، لعلها تزيد على مئة نوع .

كذلك كان انتاجهم عظيماً فى صناعة القماش والمنسوجات وقد كان أغلب لباس أهل الهند الكرباس والقطن الثخين العادى والصوف الخام .

وقد أنشأ ملك كجرات السلطان محمود بن محمد الكجراتى المشهور باسم محمود بيكره (م ٩١٧ ه) مصانع كثيرة للنسيج والوشى والتطريز والنحت ، ومصنوعات العاج والمنسوجات الحريرية ، وصناعة الورق ، وقد كان السلطان محمود هذا ملكا عمرانياً كبيراً ، أحدث نشاطاً صناعياً وزراعياً وتجارياً منقطع النظير فى تاريخ العصر يقول مؤرخ الهند العلامة السيد عبد الحى الحسنى فى ترجمته فى نزهة الخواطر :

« ومن مكارمه قيامه بتعمير البلاد وتأسيس المساجد والمدارس والخوانق وتكثير الزراعة وغرس الأشجار المثمرة وانشاء الحدائق والبساتين وتحريض الناس على ذلك ، واعانتهم بحفر الآبار واجراء العيون ، ولذلك أقبل عليه الناس إقبالاً كلياً ووفد عليه البناؤون والمعماريون وأهل الحرف والصنائع من بلاد العجم فقاموا بحرفهم وصنائعهم فصارت « كجرات » رياضا مخضرة بكثرة الحياض والآبار والحدائق والزروع والفواكه الطيبة ، وصارت بلاد كجرات متجرة تجلب منها الثياب الرفيعة إلى بلاد أخرى ، وذلك كله لميل سلطانها

محمود شاه إلى ما يصلح به الملك والدولة ويترفه به رعاياه.[1]

وكذلك فعل « أكبر » وأنشأ معامل كبيرة للنسيج ، وقد كانت لهم اصلاحات دقيقة عظيمة التأثير فى تعيين الضرائب على حسب الأراضى ومساحة العقارات والمزارع وتنظيمها وتشريعات مضبوطة ، وتنظيم المالية واصلاح نظام النقود ، لم يكن للحكومات الهندية السابقة عهد بها ، قد كان لشير شاه السورى الملك المقنن والادارى العبقرى فضل التقدم والابتكار وتبعه « أكبر » .

وكذلك كان للحكومات الاسلامية فضل فى تربية الحيوانات واقتنائها وترقية نسلها وتربية أجسامها ، يظهر ذلك فى مذكرات جهانكير ، « توزك جهنكيرى » وكتب التاريخ مثل « آئين أكبرى » أما تأسيس المستشفيات (المارستانات » ودور العجزة ، والحدائق العامة والمنتزهات والترع الكبيرة والبرك العظيمة فقد كان من محاسن الدول الاسلامية التى لم تسبق اليها ، وفى كتاب « جنة المشرق » وهى (الثقافة الاسلامية) و« خطط الهند » للعلامة عبد الحى الحسنى قائمة طويلة بأسماء المستشفيات والمؤسسات الخيرية والمشاريع المدنية التى نشأت فى عصور الدول الاسلامية المختلفة .

وكذلك الشوارع الطويلة التى تجمع بين شرق الهند وغربها وتمتد على طول الهند وعرضها كانت من انشاء الملوك المسلمين ، اشتهر منها الشارع الطويل الذى انشأه شير شاه السورى من سنار كاؤن أقصى

---

(١) نزهة الخواطر الجزء الرابع . ترجمة السلطان محمود بن محمد الكجراتى ص ٣٤٥ .

بلاد بنغال (فى باكستان الشرقية)[1] إلى ماء نيلاب من أرض السند (فى باكستان الغربية)[2] مساحته اثنتان وثلاثون وثمان مائة وأربعة آلاف (٤٨٣٢ كم) وأسس فى كل ثلاث كيلوات رباطا ورتب هناك مائدتين مائدة للمسلمين ومائدة للهنادك ، وأسس مسجدا على كل ثلاثة كيلوات ، ووظف مؤذنا ومقرئا وأماماً فى كل مسجد ، وعين فى كل رابط فرسين لبريد فكان يرفع اليه أخبار نيلاب إلى أقصى بلاد بنغال كل يوم ، وغرس الأشجار المثمرة بجانبى الشارع ليستظل بها المسافر ويأكل منها .

وعلاوة على ذلك فقد كان مما أدخله المسلمون ونقلوه من الخارج إلى الهند النظافة الزائدة فى كل شىء والظرافة فى المأكل والمشرب والبناء والاجتماع ، والاحتفاظ بأصول الصحة وتهوية البيوت وتنويرها والتألق فى الأوانى ، فقد كان أهل الهند – ولا يزال كثير منهم – يأكلون على اوراق الشجر ، خصوصاً فى الولائم الكبيرة ، وقد أحدث المسلمون انقلابا عظيما فى المجتمع وفى الحياة المنزلية وفى نظام تأثيث البيوت .

وكذلك أدخلوا فنا معماريا جديداً يمتاز بالمتانة والدقة والرقة والجمال والتناسب والفخامة والتهوية والتنوير ، ولايزال « تاج محل » آية فى الهندسة والبناء إلى اليوم ..

هكذا كان المسلمون يعيشون فى القرون الوسطى ..

فكيف كان يعيش الناس ــ هذا الوقت ــ فى أوربا ؟

---

(١) بنغلاديش حاليا .

(٢) باكستان حاليا .

جاء فى التاريخ العام للافيس ورامبو ما يلى : كانت انجلترا الانجلوسكسونية فى القرن السابع الميلادى إلى ما بعد العاشر فقيرة فى أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير منحوت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها فى وطاء من الأرض ، مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الاغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشى والسائمة وهى المورد الوحيد فى البلاد ، ولم يكن الناس أحسن مسكنا وأمنا من الحيوانات ، يعيش رئيس القبيلة فى كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون فى قاعة كبرى فى وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح فى السقف فتحا غليظا ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته فى أحد أطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وللاقداح حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه ، أو يفرغه فى فيه دفعة واحدة وينتقل السيد إلى غرفته فى المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، ثم ترفع المنضدة والصقالات ، وينام جميع المجتمعين فى تلك القاعة على الأرض أو على دكك ، واضعا كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضى على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت أوروبا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة ، تجتاح الناس وتحصدهم . وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب (كبيوت القرى

عندنا منذ نصف قرن) ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة ، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وكثيرا ما كانوا يؤون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف ، يجعل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، ولم تكن أكبر مدينة فى أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفا .

هكذا كان الغرب فى القرون الوسطى حتى القرن الحادى عشر فما بعده ، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم(١) .

لهذا كتب الملك جورج الثانى ملك انجلترا رسالة الى الخليفة هشام الثالث قدم بها بعثة من الطالبات الانجليزيات ، وجعل ابنة أخيه الأميرة « دوبانت » أميرة عليها . وهذا نص الرسالة ..

من جورج الثانى ملك انجلترا ، والغال « فرنسا » والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام :

بعد التعظيم والتوقير : فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا

---

(١) نقلا عن كتاب من روائع حضارتنا .

لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتناء أثر منه لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وهن من لون اللواتى سيتوفرن على تعليمهن ، وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامك الكريم ، أرجو التفضل بقبولها مع التعظيم ، والحب الخالص .

من خادمكم المطيع
جورج الثانى

واقرأ معى هذا الرد الذى بعث به الخليفة هشام الى ملك انجلترا وابحثى معى عن « العلة » أو « السبب » الذى انتهى بالمسلمين إلى منحدر التخلف والردى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين .. وبعد : فالى ملك انجلترا وايقوسيا « واستلنديا فيه » ، الأجل .

لقد أطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم . وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى .

أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد ، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالى لطنافس والسجاد الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافى للتدليل على التفاتنا ومحبتنا . والسلام » .

خليفة رسول الله
على ديار الأندلس
هشام

**..

هل تصدقين أيتها الأخت (أ ــ ح) أن بريطانيا عرضت نفسها على الإسلام ؟

لقد نشر المؤرخ البريطانى جابريل رونى JABRIEL RONAY الوثيقة التاريخية لهذه المحاولة التى تمت فى عهد الملك « جون لاكلاند » JOHN LACKLAND يقول هذا المؤرخ فى وثيقته التى نشرتها جريدة الصنداى تايمز THE SUNDAY TIME ما نصه بالحرف

فى عام ١٢١٣ ، ويحركة يائسة من الملك جون لاكلاند أرسل وفدا سريا من ثلاثة أشخاص ، إلى الأمير محمد الناصر ، الحاكم المغربى القوى ، ليعرض له ولاءه وليعده بأنه سيكون أى الملك جون لاكلاند تابعا مخلصا ، فيما إذا قبل الأمير أن تكون بريطانيا تحت الرعاية العربية ، وليؤكد له أن الدخول فى الإسلام هو المخرج من ضغط المشاكل السياسية التى تلح عليه .

لقد وقع بالصدفة بين يدى ، النص الحرفى لما حمله الوفد ، فى دورية قديمة ، كانت تصدر فى ذلك الوقت عن أحد الأديرة ، عندما ، كنت أجرى أبحاثا على الكاهن الكاثوليكى روبرت دى لندن ، الذى كان صدر بحقه حرمان كنسى ، ونفى من بريطانيا ، بسبب دوره فى ثورة الماغنار كاتا .

هذه الحلقة الواقعية المنسية ، من التاريخ البريطانى ، سجلها ماتيوباري ، المؤرخ الأخبارى الدقيق لأحداث القرن الثالث عشر ، الذى أخذ حقائقه واستقاها من مصادرها .

وحسب ما يقول « باريس » أن رجال الوفد الثلاثة كانوا مكونين من البارونين توماس هارنجتون ورالف فيتزسنكولاس ، والسيد روبرت دى لندن غير أن باريس لم يقدم أى تفسير لضم الكاهن اللندنى للوفد ، إلا أن السبب الأكثر ترجيحا ، هو أن الملك جون لاكلاند ، عهد إلى السيد روبرت بإدارة شئون أبرشيته الخاصة ، ولذلك فهو من المقربين والموثوقين ، وبالتالى فإن اشتراكه فى الوفد يشكل ضمانا ضد البارونين كى لا يمارسا عليه خداعا فى أثناء تأدية المهمة .

وكان توماس هاردنجتون ، رئيس الوفد كان قد أعطى تعليمات من قبل الملك ليبلغها الى أمين أفريقيا العظيم وأمير المغرب وأسبانيا ، بأنه ـــ أى الملك البريطانى سيتنازل عن طواعيه وطيبب خاطر ، عن مكانته ومملكته ، ويصبح تحت تصرف الأمير العظيم . وإذا كان يسره

فإنه يضع بريطانيا أمانه بين يديه ، ويتخلى عن الاعتقاد بالديانة المسيحية ، ويتمسك ويلتزم بكل اخلاص بدين وعقيدة محمد .

ونقلت رسالة الملك جون أو تعليماته إلى الأمير بواسطة مترجم ، حيث تكلم رئيس الوفد بمهارة خطابية هائلة عن غنى الأرض الانجليزية .

وخصوبة حقولها ومهارة شعبها العظيم الحاذق الخلاق ، ومعرفة هذا الشعب للغات الثلاث : اللاتينية والفرنسية والانجليزية واتقانهم لكل مهنة عقلانية .

وكان رد الأمير المغربي المسلم ردا حصيفا جاء فيه :

« لم أقرأ أو أسمع قط أن ملكا يمتلك مثل هذه البلاد المزدهرة الخاضعة المطيعة له عن طواعية ، يقوم بتدمير سيادته واستقلاله بجعل بلده الحر يدفع الجزية لغريب . علما أنها يجب أن تكون ملكه وله وحده وبتحويل السعادة إلى بؤس ، فيسلم نفسه لإرادة آخر ، ويهزم بلده دون سبب » . وطلب الأمير من أعضاء الوفد ألا يمثلوا فى حضرته ثانية ولدى عودتهم إلى بريطانيا « بكى الملك جون لأن مساعيه قد أحبطت » . وربما اعتقد أن باروناته قد خدعوه وخانوه . لكنه وضع الكاهن اللندنى مسؤولا عن جميع شئون دير القديس البانز كمكافأة له . غير أن مسؤولياته عن هذا الدير أنتهت ، لأن الرهبان رشوا الملك لازاحته بسبعمائة من الماركات الفضية .

***

أرأيت كيف كان المسلمون زينة الحياة الدنيا ؟ ومتى ؟ فى القرون الوسطى حين كان الأوربيون يعيشون هذه المرحلة فى بيوت طينية أشبه بالسراديب والكهوف فى غابات أفريقيا ..؟ فكيف مالت كفة الميزان الحضارى ليصبح المسلمون هم الأقل شأنا والأكثر هوانا وتخلفا .. ؟

لقد حدث ذلك حين تركنا ديننا ، كما حدث ذلك حين تخلينا عن القيم الرفيعة التى جاءت بها عقيدتنا وحضارتنا ..

لقد جئت من الريف إلى القاهرة منذ حوالى خمسة وأربعين عاما .. أتدرين كيف كانت القاهرة فى هذه الفترة ؟

كانت أجمل المدن فى أسيا وأفريقيا .. وكانوا يسمونها — بحق — « أم الدنيا » لم تكن القاهرة كما ترينها الآن ضجيجا وفوضى .. كانت الأرصفة تغسل ليلا ، والشوارع تغسل وتكنس صباحا ومساءا ، وكانت الحدائق .. بل كان النيل يشق طريقه فى وسطها فخورا مزهوا .. وكانت متعة أن يسير فيها الإنسان ليلا أو نهارا ..

لم يكن هناك فارق فى النظافة بين الأحياء الرئيسية فى قلب المدينة ، وبين الأحياء الشعبية فى القاهرة القديمة . بل أننى كنت أفضل الحياة فى هذه الأحياء التى كان يفوح عبق البخور والطيب ، والتاريخ فى شوارعها وأزقتها الضيقة .!

ولازلت حتى يومنا هذا حريصا على هذه العادة التى تذكرنى بأجمل أيام العمر ، وتذكرنى بتلك السنوات التى كانت القاهرة فيها قرة عين الناظرين للعرب والمسلمين من كل بلد وقطر ..

أما الآن فقد مسخت القاهرة الجميلة .. فقدت روح الجمال والبهاء والعاطفة .. وأصبحت القذارة سمة من سمات الحياة فى مدينتنا الخالدة .. أدخلى أى مكان .. اذهبى إلى عيادات مشاهير الأطباء التى تقع فى أرق الأحياء ... سوف تفاجئين بصورة تتنافى مع أبسط قواعد الذوق واللياقة ، والطهارة والنظافة ... ثم انظرى إلى البيوت من الخارج .. شيء مقزز يؤذى البصر والبصيرة .

حتى المساجد .. لم تسلم من هذه الظاهرة التى يتنافى وجودها مع وجود المسجد ورسالته أصلا ...

هل تصدقين أن أول ما تقع عليه عيناى كل يوم فى ميدان الأزهر – عربة قمامة يجرها حماران فى غاية الهزال والقذارة ، والأدهى وأمر .. أننى قبل أن أدخل مبنى الادارة تطاردنى جيوش البعوض والذباب التى تنطلق من القاذورات والمخلفات التى تحيط بهذا المبنى ...

لقد تكلمت كثيرا مع مسئولين كبار حول هذه الجريمة ... وبح صوتى ولما يزل يصرخ حتى هذه اللحظة .. وأذكر منذ سنوات حين زارتنى مستشرقة أمريكية اسمها JANE SMITH .. لقد هاجمت جيوش الذباب بضراوة . وحين هممت بالاعتذار اليها عن هذه الغارة .. قالت مبتسمة :

أعرف ما تريد أن تقوله ... ان دينكم هو دين النظافة ، ولكن الواقع يختلف تماما عن هذه الحقيقة ...

« لقد ذهبت أمرأة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تشكو زوجها وحين وقفا بين يديه قالت المرأة :

ــ يا أمير المؤمنين . هذا زوجى وابن عمى وأنا لا أريده ففرق بينى وبينه .. فقال الزوج :

هذه زوجتى يا أمير المؤمنين ولم يمض على زواجنا أكثر من شهرين حتى جاءت تطلب الطلاق من غير ذنب جنيته ولا أحدثته ..

قالت الزوجة :

هو ما أساء الى ولكن لا أريده ...

فنظر عمر إلى الزوج فاذا هو شاب قد طال شعره ، وركبته الأوساخ ولم تمسه يد الحلاق ولا الماء منذ شهور .. وله لحية كشعر القنفد ، وأظافر سود قذرة ، وعلية ثياب ممزقة بالية لايعرف لها لون أو شكل وتنتشر رائحتها القذرة على بعد أمتار .

فقال عمر للزوجة : اذهبى وتعالى الى غداً ..

ثم أشار إلى غلامه . فذهب بالرجل إلى الحلاق فأخذ من شعره ، وإلى الحمام فغسلة وقلّم اظافره ، وألقى عنه هذه الثياب القذرة ، واستبدل بها ثياب جديدة نظيفة ثم جاء به من الغد ، وقد خلق خلقا جديداً وعاد رجلاً آخر ، وبدأ شبابه وجماله وصحته ، فلما حضرت الزوجة فى الموعد المحدد إلى مجلس عمر ورأته بجواره غضت بصرها حياء من جماله ورجولته ، لأنها لم تعرفه وحسبته رجلا غريباً ...

فأشار عليه عمر أن أمسك بيدها ، فلما أمسك بها وثبت غاضبة وخلصت يدها منه بقوة وقالت :

ـ أتهجم على بين يدى أمير المؤمنين أيها الفاسق ..

فقال عمر مبتسما ...

ـ ويحك .. أن هذا زوجك . فنظرت إليه الزوجة غير مصدقة ثم ألقت بنفسها بين يديه وهى تبكى . ثم انصرفا راضيين ..

قال عمر :

هكذا فاصنعوا لهن . انهن يحببن أن تتزينوا لهن . كما تحبون أن يتزين لكم .

ألم أقل لك أيتها الأخت أن الإسلام شيء .. وأن المسلمين شيء آخر ..

شيء آخر مختلف جدا عن كل ما جاء به الإسلام من قيم رفيعة ومثل عليا ..

وتلك هى قمة المأساة .. مأساة الإسلام . مع المسلمين ومأساة المسلمين مع دينهم العظيم ...!

***

جَرِيمَةٌ ضِدَّ المُسْتَقْبَلِ

وتقول الأخت العزيزة « أ ـ ح » ...

هل من خلق المسلم أن يستخدم طفلا عمره أربع سنوات ، أو خمس سنوات أو ست سنوات فى خدمته بدلا من مساعدته للذهاب إلى المدرسة ؟

أننى أعلم بأن الله سبحانه وتعالى يفضل « مداد » العلماء أو طالب العلم على دين الشهيد ، وبأن العلم يجب السعى إليه من بدء الخلق حتى المواراة فى القبر ، وأن العلم فريضة على المسلم حتى لو كان هذا العلم فى أقصى بلاد الدنيا كالصين ..

***

وأؤكد للأخت الغيورة المؤمنة أن ما تقوله هو الحق . وهو الواجب ، وهو ما ينبغى أن يكون بالنسبة لأى طفل مسلم ولأية طفلة مسلمة .

فالإسلام كما تقولين يحرص أشد الحرص على أن ينشأ أبناؤه وبناته نشأة علمية صحيحة وسليمة وشاملة .

وهناك قصة طريفة يرويها العلماء عن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب .. فقد ذهب اليه رجل يشكو من عقوق ابنه ، معه ، وحين استدعى الولد ووقف بين يدى أمير المؤمنين اعترف بكل ما قاله أبوه عنه ، وحين أنبه عمر على عمله هذا قال الولد لسيدنا عمر ..:

ولكن يا أمير المؤمنين أليس للولد عند والده حق ؟

فقال سيدنا عمر : بلى .. فقال الولد : وما حق الولد على والده يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : أن يحسن اختيار أمه . وأن يختار له أحسن الأسماء ، وأن يعلمه الكتاب .. أى القرآن ..

فقال الولد : ولكن أبى لم يفعل شيئا من ذلك .

لقد اختار لى أما كانت « أَمَةً » تباع وتشترى فى الأسواق .. وسمانى « جعران » بدل أن يسمنى أحمد أو عبد الله ..

كما أنه لم يعلمنى شيئا من الكتاب .. أى القرآن ..

فالتفت سيدنا عمر الى والده وقال له :

جئت تشكو ابنك وقد عققته قبل أن يعقك .. وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك ..

***

« ... وإذا كانت الأمم المتحدة قد بدأت تعنى بالطفولة ، وقررت إقامة عيد لها فى نوفمبر من كل عام فى ذكرى إعلان حقوق الطفل وذلك من خلال الوثيقة التى أعلنتها المنظمة الدولية ، فإن الإسلام منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة عنى بالطفولة ، وجعل من مبادئه الكريمة ورعايته عيدا دائما لها ، ولم يكتف بحقوقه منذ وجوده فى الحياة .. ولكن حدد له حقوقه حتى قبل أن يولد .

وللطفولة فى الاسلام عالمها الجميل الملىء بالبهجة والجمال والأحلام والسعادة والحب ، وحديث القرآن عن الطفولة يفيض

بالمودة والنبل ، فالله يقسم بالطفولة : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد » .

سورة البلد الآية (١ ، ٢ ، ٣) .

والأطفال هم بشرى إلى الآباء من الله :

« يا زكريا أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

سورة مريم الآية (٧) .

وهم قرة العين فى هذه الحياة :

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين » .

سورة الفرقان الآية (٧٤) .

وهم زينة الحياة الدنيا كما يقول الله :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

سورة الكهف الآية (٤٦) .

ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يرسم لنا عالم الطفولة وكأنه عالم قريب من عالم الجنة فيقول « الأطفال دعاميص الجنة » .. والدعاميص هى نوع من الفراشات الجميلة .

ورعاية الأطفال واجبة ، وحبهم قربى إلى الله ، أليس الرسول الكريم هو القائل : « لولا أطفال رضع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رتع ، لا نصب عليكم العذاب انصبابا » لقد جعل رسول الله ﷺ الأطفال سببا فى عدم نزول العذاب .

ولقد كان حب الرسول للطفولة يملأ قلبه المضيء ، صعد المنبر ذات يوم يخطب الناس ، ورأى الحسن والحسين يجريان ويتعثران ، فقطع خطبته ، ونزل فاستقبل الطفلين وحملهما على ذراعية ، ثم صعد المنبر وقال : « أيها الناس إنما أموالكم وأولادكم فتنة « صدق الله العظيم » ، والله لقد رأيت ابنى يجريان ويتعثران فما أطقت حتى نزلت فحملتهما » .

وكان يصلى ذات يوم فأقبل الحسن والحسين فركبا ظهره وهو ساجد فأطال السجود ثم أطال السجود ، ولم يرض أن يعجل بنزولهما حتى نزلا ، وحين سلم سأله أصحابه : لقد أطلت السجود يا رسول الله ، فقال : « لقد ارتحلنى ابناى فكرهت أن اعجلهما » وكان صلى الله عليه وسلم يعجل فى صلاته إذا ما سمع بكاء الطفل ويقول : انى أكره أن أشق على أمه » وكان يمر ذات صباح على بيت فاطمة فبلغ مسمعه بكاء الحسين فشق عليه ذلك فقال لفاطمة بعد أن انتهرها : « أو ما علمت أن بكاءه يؤذينى » .

ودخل الأقرع بن حابس على الرسول وهو يقبل حفيديه الحسن والحسين فقال له : « اتقبل ولدى ابنتك .. والله ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت أحدهم » فقال له الرسول عليه الصلاة السلام : « وما على أن نزع الله الرحمة من قلبك » .

والإسلام لم يهتم بالطفل فقط من ميلاده ، وإنما قبل أن يتكون بصورة أو بغير صورة عند أمه وأبيه . فالإسلام يأمر الرجل عند الزواج أن تكون الزوجة متدينة « فاظفر بذات الدين تربت يداك » ، وأن لا يكون جمال المرأة أو حسبها أو مالها هو كل شيء ، بل لابد أن

يضم إلى أى من ذلك أن تكون ذات دين من بيت كريم لأن أولادها سيرثون من أخلاقها وصفاتها وسلوكها ، ونهى عن الزواج بالجميلة دون أن يؤازر هذا الجمال قيم أخلاقية وتربوية .. فقال « اياكم وخضراء الدمن » وهى المرأة الجميلة فى المنبت السوء .. وبالمقابل أرشد الرسول ﷺ ـــ أولياء المخطوبة بأن يبحثوا عن الخاطب صاحب الدين والخلق الكريم ليرعى الأسرة رعاية كاملة ويؤدى حقوق الزوجة والأولاد « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، ألا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير[1] » .

***

وإذا كانت التربية الدينية الصحيحة فى ذاتها من أول ما تمس إليه حاجة البشر ، فإنها اليوم فى طليعة الضروريات التى لا يصح بحال أن يتهاون فى أمرها . ومن الواجب أن تنال من العناية فى حزم وأسراع ما يليق بمكانتها ، وما يتفق ومقدار الحاجة إليها .

والمدرسة الأولى لهذه التربية هى الأسرة . ففيها وحدها يوضع حجر الأساس . وفيها وحدها يشيد هذا البنيان ، حيث تكون الطفولة عجينة طيعة تتقبل ما يعطى لها من الصور والأشكال ، فضائل كانت أو رذائل ، وحيث تكون النفوس أرضا براحا تنبت فيها البذور التى تبذر فيها ، بذور صلاح أو بذور فساد ، وحيث تكون القلوب أوانى فارغة إذا ملئت بشىء احتوته وأمسكته ، خيرا كان أو شرا ، ومن شب على شىء شاب عليه .

---

(١) نقلا عن كتاب أصدره الأزهر بمناسبة اليوم العالمى للطفولة الذى نظمته الأمم المتحدة .

أما دور التعليم ، وأما مجالس الوعظ والارشاد فى دور العبادة وغيرها ، فلا يرجى من ورائها شيء أكثر من تعهد هذا البنيان ، وصيانته واعلاء شرفاته ، والعمل على تزيينه .

والمسئول الأول عن هذه التربية هو رب الأسرة . ففرض على كل مسلم أن يعنى بتربية أسرته التربية الدينية الصحيحة . وأن ينشر فيها تعاليم الدين ، وفضائله ، بالقول والعمل ، وأن يعمل جاهدا على أن ترعى فيها حقوق الله حق رعايتها ، وألا تتعدى فيها حدوده وأن يكون طابعها الأول هو الطابع الدينى الخالص . فإن فرط فى شيء من ذلك حل عليه غضب ربه ، واستحق نقمته ، فقد ولاه أمر هذه الأسرة ، وتهدده أن يضيعه إذا هو ضيعها ، وليس وراء ضياعها فى دينها ضياع ، وقد استرعاه الله هذه الأسرة فلم يحطها بعنايته ونصيحته فى أغلى ما يكفل سعادتها ، ورسول الله ﷺ يقول :

« ومن استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة » .

وأول ما يجب عليه نحو أسرته فى هذا الصدد أن يبدأ بنفسه . فيصلحها بالمواظبة على الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتخلق بأخلاق الدين ، والتأدب بآدابه والتحرز عن الأقاصيص والخرافات الدينية التى تضر ولا تنفع ، والحرص على الا يظهروا له على عورة دينية ، ليكون لهم فيه أحسن القدوة ، وليربى فى نفوسهم بالطريقة العملية حب الأعمال الصالحة ، والرغبة الصادقة فى التحلى بها ، فهو رب الأسرة وعائلها ، فله فى نفوسهم المكانة الأولى ، وهو موضع حبهم واعزازهم ، ومعقد اعتزازهم وفخرهم واعجابهم ، فهو قدوتهم المثلى ، ومثلهم الأعلى ، فإن هو أخذ نفسه بهذه الطريقة الصالحة ،

واتفقت أعماله وتعاليمه . فقد تظاهرت عوامل الهداية والتهذيب وتساندت ، فيسيرون أولا على سننه اقتداء به ، ثم لا يلبثون إلا يسيرا حتى تفقه نفوسهم هذه الصالحات فيؤدوها عن عقيدة خالصة وايمان كامل . أما اذا نصح وأرشد ، وأمر ونهى . ثم هو فى الوقت نفسه يجتنب ما يأمرهم به ، ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، كانت لهم فيه أسوأ قدوة ، واقتلعت أعماله ما غرست أقواله ، وجعلت نصائحه وارشاداته هباء منثورا .

وعلى الزوج أن يأخذ زوجه بأداء حقوق الله . كما يأخذها بأداء حقوقه هو أو أشد . وعليه أن يعلمها ، أو أن ييسر لها تعلم ما تحتاج اليه فى أداء هذه الحقوق ، وعليه بوجه عام أن يأمرها بالمعروف ، وينهاها عن المنكر ، يبدأ هذا أول ما يبدأ باللين واللطف ، فإن لم تستجب أرتقى الى مرتبة النصح والوعظ والتخويف بالله وعقابه ، فإن لم ينفع هذا ارتقى إلى مرتبة الاغلاظ فى القول والتعنيف ، وليس له أن يتجاوز معها هذه المرتبة فيما يرجع إلى حقوق الله ، وليست من حقوقه ، اللهم إلا أن تكون على معصية فعليه أن يمنعها منها .

والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ليسوا بمكلفين شرعا ، ولكن عليه أن يعلمهم فرائض دينهم ، وما يحتاجون إليه فى أدائها ، وعليه أن يؤدبهم بآداب الدين ، ومكارم الأخلاق ، وعليه أن يعودهم أداء الطاعات لتألفها نفوسهم ، واجتناب المعاصى ليألفوا البعد عنها ولا يحل له أن يتركهم فيتناولوا من الطعام والشراب مالا يحل لهم تناوله بعد البلوغ ، وهذا أيضا هو حكم اللباس ، ويأخذهم

فى هذا كله باللين واللطف ، ثم بالموعظة الحسنة ، ثم بالشدة والعنف ، ثم بالضرب .

ومن جوامع الأدب فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى . فإذا بلغ ست سنين أدب (أى بدىء فى تأديبه) . فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه . فإذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة . فإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه . ثم أخذ بيده وقال : قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك . أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة[1] .

***

نعود بعد ذلك إلى « العلم » ومكانة هذا العلم و أهمية هذا العلم فى حياة كل مسلم ومسلمة يقدر على تحصيل العلم .

ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ..

هذا هو شعار الإسلام الذى رفعه منذ أربعة عشر قرنا ، وألزم به المؤمنين قولا ، وعملا ، وميز به المسلمين دينا وأمه .

حسبنا فى ذلك أن يكون أول نداء يفتتح به الله وحيه الى نبيه محمد ــ ﷺ ــ قوله عز شأنه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

---

(١) نقلا عن كتاب الأسرة فى الإسلام لفضيلة الشيخ فرج السنهورى .

يأمر الله بالقراءة ، والقراءة طريق العلم والمعرفة ، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم (الرب) مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق ، فيستشعر الانسان بعزة شأنها وأنها من الأمور العظمى ، ثم يذكر خلقه وتكوينه ، ويردفه بنعمة العلم « الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » .

ويكون بذلك قد سوى بين نعمة الخلق والإيجاد ونعمة العلم .. فيكون ذلك ايحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده فى هذه الدنيا ..

ان الناس فى نظر الإسلام أحد رجلين : أما متعلم يطلب الرشد ، وأما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك من يؤبه له بعدهما .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام : (العالم والمتعلم شريكان فى الخير .. ولا خير فى سائر الناس) ..

وفى الحديث أيضا :

« من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة ، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ، ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم .. فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

فإذا أمعنا النظر فى صفحات القرآن الكريم راعنا هذا الحوار القائم بين الله سبحانه وبين الملائكة عن (آدم) واستخلافه عن الله فى الأرض .

(وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة

قالوا : أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ .. قال : أنى أعلم مالا تعلمون ..

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين ..

قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم .

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[1] ..

حينئذ .. سجد الملائكة لآدم تكريما .. تكريما وتعظيما للعلم الذى تميز به آدم على الملائكة المقربين وحملة العرش ..

أليس فى هذه المفاضلة بين آدم والملائكة إشعار بأن الأساس الذى تميز به آدم على الملائكة إنما هو العلم .. ؟

***

أذن ما العلم الذى يدعو إليه الإسلام ؟

ان العلم فى نظر الإسلام هو كل إدارك يفيد الإنسان توفيقا فى القيام بمهمته العظمى التى ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه وجعل خليفة عن الله فى أرضه .

---

(١) سورة البقرة : الآيات : ٣٠ ــ ٣٣ .

« هذه المهمة هى عمارة الأرض واستخراج كنوزها واكتشاف أسرار الله فيها . فإدراك ما يصلح به النبات وينمو ، وما تستنبت به الأرض وتحيا علم .. وإدراك ما يصلح الحيوان ويستمر به نسله .. علم .

وإدراك الوسائل النافعة لتحصيل الأموال .. وإزدهار الصناعة .. علم .

وإدراك الأمراض وعللها وكيفية علاجها والوقاية منها .. علم .

وقد أدرك المسلمون الأولون قيمة العلم ومنزلته فى سعادة الأفراد والأمم ، كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فجدوا فى محو أميتهم بكل الوسائل حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علم عددا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وجعل تعليم القرآن مهرا فى الزواج ، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر فى الكائنات ، فأدركوا منها ما يسعدهم فى الحياة ، ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله .

ومنذ نزل القرآن الكريم وشق به الرسول طريق الحياة ، شرع العقل الإسلامى يعمل بجهد رائع وحرية مطلقة ، ويختلف العلماء باختلاف أساليب البحث والنظر دون أى حرج .

لقد هدم الإسلام أسوار الكهنوتية البغيضة ، وأزاح عن العقل كل وصاية مفروضة ، وأطلق ملكات الإنسان الحبيسة كى تأخذ مسارها الطبيعى فى رحاب الكون كله .. فلم يشهد المجتمع الاسلامى ما شهدته أوروبا من تحجر العقل ، وجدب الروح وبلادة الحس ، والضراوة فى محاربة العلماء والعلم .

ويذكر التاريخ .. أن عدد العلماء الذين عوقبوا فى أوروبا بلغ ثلاثمائة ألف .. أحرق منهم أثنان وثلاثون ألفا أحياء ..

كان منهم العالم الطبيعى « برونو » وعوقب العالم الطبيعى جاليليو بالقتل وحرقت كتبه لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس .. ولم يصدر الحكم ببراءته إلا منذ سنوات حين أصدر الفاتيكان قرارا بتبرئته من الالحاد و الكفر ..

وحبس « دى رومنس » فى روما حتى مات .. فحوكمت جثته وألقيت فى النار .. لأنه أعتقد أو قال : ان (قوس قزح) ليست قوسا حربية ينتقم بها الله من عباده اذا أراد ، بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء .

ونجاة المجتمع الاسلامى من هذه المآسى الشائنة التى خيمت على أوروبا يعود إلى طريقة القرآن فى ربط الإنسان بالكون واطلاقه الحرية الكاملة للباحثين دون حظر ولا قيد ..

يقول كاربنسكى ان الخدمات التى أداها العرب للعلوم دلت على عظم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوروبا تعيش فى ظلمات القرون الوسطى . ولو لم يظهر العرب على المسرح لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون ..

***

وهكذا ترين أيتها الأخت أن الإسلام أعطى ـــ العلم ـــ هذه الأهمية التى لم يسبق بها فى أى دين أو تشريع أو حضارة عرفتها هذه

الدنيا . وأن هذا « العلم » هو المقياس أو الميزان أو الفاصل بين الأحياء والموتى ..

وإذا كان تكليف الله لعباده لا يتحقق قبل أن يبلغ الانسان سن التكليف أو قبل أن يصل الى مرحلة البلوغ .. أصبح واضحا أن تكليف الأطفال بأى عمل قبل هذه السن يعتبر جريمة فى حق الطفل ، باستثناء التعليم الذى يبدأ فى مرحلة مبكرة قبل بلوغ هذه السن . على نحو ما ورد فى الأحاديث الصحيحة المروية عن النبى ..

والوالدان هما المسئولان أولا وقبل كل شيء .. وهى مسئولية تفرض عليهما الاهتمام والرعاية بأطفالهما منذ البدء .. وليس أهم من التعليم للطفل فى هذه المرحلة المبكرة من العمر ، وحرمان الطفل من التعليم جريمة تساوى فى أثارها ونتائجها جريمة « الوأد » التى كان العرب يفعلونها خوفا من العار أو الفقر ، والتعلم فى « الصغر » كالنقش على الحجر كما تقول الأمثال السائرة فى مصر .

فإذا عرفنا ــ بعد ذلك ــ أن القوانين تحرم عمل الطفل ، وتعتبر ذلك جريمة فى نظر القانون والشرع . أدركنا خطورة هذا التصرف الذى يتسم بالقسوة والأنانية وإهدار الحياة والمستقبل بالنسبة لأى طفل .

وإذا كان الإسلام يحرم استخدام الحيوان استخداما يعرضه للهلاك والموت فكيف بالإنسان الذى كرمه الله واختاره خليفة عنه فوق هذه الأرض .. ؟ ..

***

لقد حدث فى مطلع هذا العام أن اكتشفت الشرطة مخبزا يسخر صاحبه الأطفال الصغار ، والأدهى من ذلك وأمر . أن الأطفال حوصروا داخل هذا المخبز فلم يسمح لهم بالخروج منه فى الليل أو النهار . لقد فزع الرأى العام كله من هول هذه الجريمة ، وتحدثت الصحف عنها لفترة طويلة ، وقد أدين هذا العمل ادانة كاملة من العلماء ورجال الفكر ، ولم تسلم الأجهزة الحكومية من اللوم والنقد ، فقد اكتشف أن هناك قوانين تحرم استخدام الطفل فى مثل هذا العمل .

والقانون لا يكون قانونا إلا إذا وقفت وراءه قوة تحميه وتنفذه أو ضمير حى يمنع صاحبه من الخروج عليه أو نبذه ..

***

وانها لظاهرة مؤسفة تجدينها فى معظم بلدان العالم الثالث أو المتخلف .. وهى ظاهرة لعوامل كثيرة تحمل أوربا أوزارها كلها لو تحرينا الحقيقة وبحثنا عن الدوافع الكامنة لهذه الجريمة ..

وإنما أولادنا بيننـــا .·. أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم .·. لامتنعت عينى عن الغمض

النهَايَة .. المُثيرَة ..

وفى النهاية تختتم الأخت (أ ـــ ح) أسئلتها بهذا السؤال المشتمل على أربعة أسئلة .. مثيرة ، وشيقة ..

(أ) هل الشيطان يمكن رؤيته من الناس .. أعنى على الأرض ؟ أننى أفكر فى حالة مارتن لوثر .

(ب) أين توجد أرواح الموتى الذين ينتظرون يوم القيامة بعد رحيلهم من هذه الدنيا ؟

(جـ) هل كل غير المسلمين مصيرهم النار .. أم هم هؤلاء الذين ولدوا بعد ظهور الإسلام من الذين جاءهم الدليل وتنكروا له .

(د) هل حقيقة أن هؤلاء الذين كتبت عليهم النار سيظلون بها دواما ، أم أنهم سيظلون بها لوقت يكفى للتكفير عن خطاياهم كمكان للعبور ينتهى بوصولهم إلى الجنة ؟

ان القرآن يذكر خالدين فيها أبدا ، ولكن أليس فى قدرة الله أن يقرر شيئا آخر فى نهاية المطاف ؟

***

فى البداية .. حاولت أن أعرف شيئا عن تلك « الحالة » التى تعرض لها « مارتن لوثر » مع الشيطان .. والتى أشارت الأخت إليها فى أول فقرة من هذا السؤال ..

لم أعثر فيما بين يدى من مراجع على شىء يؤكد ذلك ، وبخاصة فى دائرة المعارف البريطانية التى لا يفوتها — غالبا — شىء مثل هذه الحالة الشيطانية التى تعرض لها «لوثر» .. وشاء القدر أن يقع فى يدى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة التايم[1] بمناسبة مرور ٥٠٠ خمسمائة عام على حركته الانشقاقية ضد البابا والفاتيكان ، وكلفت شقيقى بمراجعة هذا العدد عله يقبض على « لوثر » متلبسا بهذه « الحالة » التى تؤكد صلته بالشيطان ...

وأعتقد أن ما قصدته الأخت بقولها عن هذه الحالة إنما هو التحول الذى طرأ على حياة لوثر من العمل فى المحاماة . إلى الالحاد . إلى الرهبنة . إلى زيارته لروما وثورته على فساد الكنيسة وطغيان باباواتها الذين حولوا المسيحية إلى « بنك » يتعاملون فيه بالربا الفاحش والفائدة المركبة على نحو ما كان يتعامل به البابوات والكرادلة « بصكوك الحرمان والغفران » مع شعوب أوروبا فى القرون الوسطى ..

أما أن يكون « الشيطان » قد ظهر عيانا أمام « مارتن لوثر » فهذا مالم نجد له أثرا ، ولم يشر إليه مرجع نتخذه سندا .

أن أول ما عرفناه عن ظهور الجن وتعاملهم مع البشر عرفناه من قصة سليمان النبى ، على نحو ما ورد فى سورتى « سبأ »[2] و « النمل »[3] .

---

(١) عدد ١٧ أكتوبر ١٩٨٣ .

(٢) السورة رقم ٣٤ .

(٣) السورة رقم ٢٧ .

ولكن الإنجيل يذكر أن المسيح عليه السلام قد التقى بالشيطان ، وعاش معه فى تجربة لفترة من الزمان .

فقد جاء فى الاصحاح الرابع من انجيل لوقا : أن يسوع رجع من الأردن ممتلئا من روح القدس ، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يوما يجربه ابليس ولم يأكل شيئا فى تلك الأيام فلما تمت جاع أخيرا ، وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده إبليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له ابليس : لك اعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلى قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد . فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : إذهب يا شيطان .. انه مكتوب للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد ، ثم جاء به إلى أورشليم واقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته لكى يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لا تجرب الرب الهك . ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقه إلى حين(١) .

وواضح من هذه المقابلة أن المسيح عليه السلام قد التقى بالشيطان ، وعاش معه تجربه طويلة لفترة محدودة من الزمان .

أما بالنسبة لرسول الله ﷺ . فلعل أوضح اجابة نقدمها ردا على هذا السؤال هو ما جاء فى سورة « الأحقاف »(٢) .

---

(١) الاصحاح الرابع من انجيل لوقا .

(٢) الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » إلى آخر الآيات .. ٢٩ — ٣٢ الأحقاف .

وقد ذكر الإمام بن كثير عند تفسيرة هذه الآيات كثيرا من الأحاديث التى تؤكد لقاء هؤلاء الجن بالنبى لقاء مباشرا على نحو ما يقع بين الآدمى والآدمى ..

***

وقبل أن نسترسل فى الاجابة ، أو تتخطفنا الشياطين فى كل ناحية .. يجب أن أشير الى حقيقة هامة لابد منها فى صلب هذه الاجابة .. هذه الحقيقة تتصل بطبيعة العوالم التى تشاركنا الحياة فى هذا الكون الهائل ، وصلتها بالخالق الأعظم جل شأنه ..

فالملائكة خلقوا من النور ..

والجن خلقوا من نار السموم .

والإنسان خلق من صلصال من حمأ مسنون .

والجن فريقان : مؤمن وكافر .. والكافر من الجن هو الشيطان أو ابليس وذريته من الشياطين .

ومن الواضح أن لكل عالم من هذه العوالم طبيعته التى تختلف عن طبيعة العوالم الأخرى ، من حيث العناصر ، ومن حيث التكوين ، ومن حيث المنهج أو الأسلوب الذى يتعامل به كل عالم مع غيره من العوالم فى هذه الدنيا .

ومن الواضح أيضا أن لكل عالم دائرة خاصة أو وجودا خاصا لا يمكن تجاوزه فإذا حدث هذا التجاوز أو التداخل فإنما يحدث مع الأنبياء والرسل . لأن للأنبياء والرسل شأنا خاصا عند الله ليس لأحد من البشر ..

***

غير أن للصوفية رأيا آخر بالنسبة لهذه القضية .. ففى عالم الكرامات ــ ولست أنكره ــ نجد صورا كثيرة لهذا النوع من التداخل بين عالم الأنس والجن ، والملائكة والروح .

كما تسمع عن كرامات لبعض الزهاد والصالحين يرويها عنهم عدول ثقات مشهورون بالامانة والصدق . فالكرامة على أية حال أمر خارق للعادة يظهره الله على يد « ولى » كما أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد « نبى » .

ومنذ طفولتى المبكرة وأذناى تسمع الكثير عن هذه الكرامات المنسوبة إلى الأولياء الصالحين من آل بيت النبى .. بل اننى لازلت أذكر منذ حداثتى فى القرية قصة الرجل الذى تزوج من « جُنيَّة » .. وكيف عقد قرانه عليها إمام جليل مشهور بالصلاح والتقوى ..؟!

***

ويرى الإمام الأكبر الشيخ شلتوت(١) : أن عمل الجن أو الشيطان لا يتجاوز الوسوسة والأغواء فقط .. أما ما وراء الوسوسة

---

(١) نقلا عن كتاب « الفتاوى » ص ٢٤ وما بعدها .

والأغواء — من ظهورهم للإنسان العادى بصورتهم الأصلية ، أو بصورة أخرى يتشكلون بها ، ومن دخولهم فى جسمه ، واستيلائهم على حواسه ، ومن استخدامه اياهم فى جلب الخير ودفع الشر ، واستحضارهم كلما أراد ، ومن استطلاع الغيب عن طريقهم ، ومن التزوج بهم ومعاشرتهم ، وغير ذلك مما شاع على ألسنة الناس — فهذا كله مصدره خارج عن نطاق المصادر الشرعية ذات القطع واليقين ، وقد صدق كثير من الناس — فى كل العصور كثيرا مما يسمع من أحاديث الجن ، أو يتخيل من تصرفات منسوبة إليهم ، صدقوا ظهورهم للإنسان العادى وتشكلهم بغير صورتهم ، وصدقوا محادثتهم للإنسان ، ودخولهم فى جسمه ، وصدقوا استخدامه اياهم فى جلب الخير ودفع الشر ، وفى العلم بالمغيبات .

صدق كثير من الناس ما شاع من ذلك عن الجن ، وتناقلوا فيه الحكايات التى ربما رفعوها إلى السلف الصالح ، واستمروا على ذلك حين جاراهم الفقهاء وفرضوا صحته ، واتخذوا من هذا الفرض مادة جعلوا منها حقلا للتدريب على تطبيق كثير من الأحكام الشرعية عليهم ، وكان منهم من تحدثوا عن صحة التزوج بهم ، وعن وجوب الغسل على الأنسية إذا خالطها جنى ، وعن انعقاد الجماعة بهم فى الصلاة ، وعن مرورهم بين يدى المصلى ، وعن روايتهم عن الأنس ورواية الأنس عنهم ، وعن حكم استنجاء الانس بزادهم وهو « العظم » ، وعن حكم الأكل من ذبائحهم ، إلى غير ذلك مما نراه منشورا فى كتب الفقه ، أو تجده فى كتب خاصة ذات عناوين خاصة بالجن .

وإنى أعتقد أن ذلك من فقهائنا لم يكن إلا مجرد تمرين فقهى ، جريا على سنتهم فى افتراض الحالات والوقائع التى لا يرتقب وقوعها ، أو التى لا يمكن أن تقع . وإذن ففروض الفقهاء ، التى لم يقصدوا بها إلا مجرد التدريب الفقهى ، لا تصلح أن تكون دليلا أو شبه دليل على الوقوع والتحقق ، فلنتركهم على سنتهم يفترضون ومردنا فى ذلك إلى القرآن الكريم .

والقرآن الكريم يمتن الله فيه على الناس بنعمة الأزواج ، وبأن جعلهن من جنسهم ، وجعلهن سكنا ومودة ورحمة « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة[1] » ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة[2] » وهذا يقطع حبل الشك فى فساد القول بإمكان التزوج منهم فضلا عن صحته أو فساده .

وكذلك يحكى الله فى القرآن ما تحدث به الجن إلى قومهم فى شأن الأنس ، الذين كانوا قبل الرسالة المحمدية يعتقدون أن للجن سلطانا عليهم ، فيعوذون برجال منهم يخلصونهم من سلطان الجن ، بما يزعمون لأنفسهم من سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم ، ولنصغ إلى الجن وهم يتحدثون إلى قومهم فى عقيدة أنهم يعلمون الغيب ، أنها عقيدة فاسدة ، وأن الغيب لله وحده « وأنا

---

(١) الآية ٧٢ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا[1] » وإذا كان هذا حديثهم عن أنفسهم بالنسبة لمعرفة الغيب الذى جاء فيه قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول[2] ، وقوله فى جن سليمان : « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين[3] » إذا كان هذا حديثهم بالنسبة لمعرفة الغيب ، وكان حديثهم عن أنفسهم بالنسبة لسلطانهم على الأنس ، وأن هذا وذاك موضع إنكار منهم أنفسهم ، كما حدّث القرآن ، صرنا إلى يقين لا يمسه ريب بأن الجن لا يعلمون الغيب ، ولا يقدرون على الإيذاء الاتصالى أو التلبسى مع الناس .

ومع هذا كله قد تغلب الوهم على الناس ، ودرج المشعوذون فى كل العصور على التلبيس ، وعلى غرس هذه الأوهام فى نفوس الناس ، استغلوا بها ضعاف العقول والإيمان ، ووضعوا فى نفوسهم أن الجن يلبس جسم الإنسان ، وأن لهم قدرة على استخراجه ، ومن ذلك كانت بدعة الزار ، وكانت حفلاته الساخرة المزرية ، ووضعوا فى نفوسهم أن لهم القدرة على استخدام الجن : فى الحب والبغض ، والزواج والطلاق ، وجلب الخير ودفع الشر .. الخ .

وجدير بالناس أن يشتغلوا بما يعنيهم ، وبما ينفعهم فى دينهم ودنياهم . جدير بهم ألا يجعلوا لدجل المشعوذين سبيلا إلى قلوبهم ،

---

(١) الآية ١٠ من سورة الجن .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الجن .

(٣) الآية ١٤ من سورة سبأ .

فليحاربوهم وليطاردوهم حتى يطهر المجتمع منهم ، وليعرفوا ما أوجب الله عليهم معرفته مما يفتح أبواب الخير والسعادة .

***

أما عن الروح .. ومكانتها بعد الموت .. وقبل أن ينفخ فى « الصور » نفخة الحشر ، ويخرج الناس سراعا من القبر ..

فيرى كثير من العلماء : أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء أو غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دَيْن » وهو مروى عن أبى هريرة وابن عمر . وقريب منه قول الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله : أرواح الكفار فى النار ، وأرواح المؤمنين فى الجنة لقوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم[1]) ذكره تعالى بعد ذكر خروجها من البدن ، وقسمها ثلاثة أقسام : مقربين : فى الجنة ، وأصحاب اليمين : سالمين من العذاب ، ومكذبين : لهم نزل من حميم ، وتصلية جحيم .

وأخرج عبد الله بن منده عن أم كبشة بنت المعرور قال : دخل علينا النبى ـ ﷺ ـ فسألناه عن هذه الروح فوصفها حتى أبكى أهل الميت فقال : « إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مياهها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا اخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وان

---

(١) سورة الواقعة الآية ٨٩ .

نقلا عن كتاب الفتاوى للعلامة الشيخ يوسف الدجوى ـ بتصرف جـ١ ص ٢٢٣ وما بعدها .

أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلى حجر فى النار » .

وقيل : ان الذين فى الجنة هم الشهداء لقوله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)[1] .

وروى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : « الشهداء يغدون ويروحون فى الجنة ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش » .

وفى صحيح مسلم وجامع الترمذى وغيرهما عن مسروق قال : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال : أنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال : « أرواحهم فى أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة فى أيها شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل » .

وأخرج أحمد وأصحاب السنن عن كعب بن مالك أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « أن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق[2] من ثمر الجنة ـــ أو شجر الجنة » .

وقال رسول الله ﷺ ـــ « لما أصيب أخوانكم ـــ يعنى يوم أُحد ـــ جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديلَ من ذهب معلقة فى ظل العرش

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

(٢) تعلق : أى تتناول : وهو بضم اللام ، كما فى المختار .

« الحديث » . وفى بعض الآثار : « فى صور طير » وفى بعضها « فى أجواف طير » وفى بعضها « كطير خضر » .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : « تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتتلقاه الملائكة من دون السماء فيقولون : هذا فلان بن فلان كان يعمل كذا وكذا لمحاسن عمله فيقولون : مرحبا بكم وبه ، فيقبضونها منهم فيصعدون به من الباب الذى كان يصعد عمله منه فتشرق فى السماء ولها برهان كبرهان الشمس حتى تنهى إلى العرش ، وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروجه فيقولون : ما هذا فيقولون : فلان بن فلان كان يعمل كذا وكذا ، لمساوىء عمله فيقولون : لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد إلى أسفل الأرضين » .

وقال ابن القيم : ان الأرواح المنعمة مطلقة لا حجر عليها ، فأرواح الأنبياء فى الجنة وفى عليين ، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون فى السماء الأولى أو الثانية . كما فى حديث المعراج ، وأنها مطلقة تكون عند قبرها وتذهب حيث شاءت ، فالآثار فى ذلك كله صحيحة وحق لا مرية فيه .

وقال الحكيم الترمذى : الأرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأحوال الملائكة ، تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح طيارة الى الجنان إلى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعى إلى الله تعالى أيام الحياة .

وذكر البيهقى فى كتاب عذاب القبر أنه لما توفى ابراهيم بن

النبى ـــ ﷺ قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ: « إنَّ له مُرضعاً فى الجنة » وهو فى الصحيح ، ثم قال : فحكم رسول الله ـــ ﷺ ـــ على ابنه ابراهيم بأنه يرضع فى الجنة وهو مدفون بالبقيع فى مقبرة المدينة .

وقال ﷺ : « ان مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجة حتى اذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ، وكذا المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه » .

وروى البخارى عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « العبد إذا وضع فى قبره وذهب عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم : أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل (محمد) ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : أنظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة . قال النبى ـــ ﷺ ـــ فرآهما جميعا ، وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت » .

وفى البخارى أن أبا سعيد الخدرى يقول : ان رسول الله ﷺ قال :ـــ « اذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت قدمونى وان كانت غير صالحة قالت يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعها لصعق » .

وفى فتاوى ابن تيمية ما نصه : « ما تقولون فى الأحياء إذا زاروا

الأموات هل يعلم الأموات بزيارتهم وهل يعلمون بالميت اذا مات من قرابتهم أو غير قرابتهم » .؟

فقال ابن تيمية : نعم قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء عليهم فيما رواه ابن مالك عن أبى أيوب الأنصارى قال : « إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير فى الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض أنظروا أخاكم ليستريح فإنه كان فى كرب شديد ، قال فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ » الحديث .

وأما علم الميت بالحى إذا زاره ففى حديث ابن عباس قال : قال : رسول الله ﷺ « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا ورد عليه السلام » ..

وفى مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ ــ قال : « ان أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فان رأوا خيرا استبشروا به وان كانَ غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » وفى رواية عن الطيالسى فى مسنده عن جابر بن عبد الله « وان كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » .

قل لاخوان رأونى ميتا ∴ فبكونى ورثوا لى حزنا
أتظنـون بأنى ميتكـم ∴ ليس ذاك الميت والله أنا
أنا دُرٌ قد حواه صَدَفٌ ∴ لامتحانى فنفيت المحنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ∴ فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجى ملأ ∴ وأرى الله جهاراً علنا

***

وفى هذه القصيدة تأكيد لتلك الحياة البرزخية التى تحياها كل روح خرجت .. وإلى حين تقوم الساعة وينصب ميزان العدل الالهى لتجزى كل نفس بما كسبت ..

***

وتتساءل الأخت عن مصير غير المسلمين ممن لم تبلغهم الدعوة ، وهل يدخلون النار ، أم أن دخول النار خاص بمن بلغته الدعوة .. ثم أصر ـــ بعد ذلك على ـــ عناده وكفره ؟

***

والجواب عن هذا السؤال . واضح فى القرآن جدا حيث يقول الله عز وجل « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .. » رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. »

وما من نبى أو رسول الا تمنى لقومه الهداية ، وسلك فى دعوته هذه كل الطرق الممكنة لإيصال هذه الهداية واضحة .

وفى ضوء هاتين الآيتين يمكن أن نقول بصراحة أن الذين لم تبلغهم الدعوة لا ينطبق عليهم حكم « الكفار المعاندين » الذين قامت عليهم الحجة ..

والإسلام فى موقفة هذا أكثر سماحة ورحمة من غيره .. فالمسيحية التى تنتحل قولا ـــ لا عملا ـــ صفتى الرحمة والمحبة ، ترى العالم « غير المسيحى » مجوسيا ووثنيا يستحق العقاب واللعنة ، ولا تستثنى من هذا الحكم أحدا ـــ حتى المسلمين ـــ الذين كان لهم الفضل فى الاعتراف بالمسيحية وتأكيد رسالة المسيح ونبوته بعد أن أنكرها

اليهود وأهالوا على وجهه الكريم ، ووجه أمه البتول تراب الإفتراء والأكاذيب والتهم . فكل ما عدا المسيحيين مجوسى ووثنى ولن تنجو روحه من العذاب مالم يدخل مختارا فى مملكة الصليب ، وما لم يخضع ويذعن لكنيسة الرب يسوع المسيح ..

***

وأدعوك للاستماع معى الى هذا الحوار الذى تم ـــ قبل سنوات ـــ فى مكتب الامام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر .. لقد اشترك فى هذا الحوار حوالى أربعين أستاذا جامعيا من مختلف جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، كما اشترك فيه حوالى عشرة قسس يمثلون مختلف الكنائس الأمريكية ..

كان الغرض من هذا الحوار أصلا الاستشراف إلى أفاق جديدة للتعاون الصادق بين الاسلام والمسيحية .. وفجأة .. وبدون مقدمة . وقف أستاذ أمريكى يقول لشيخ الأزهر .

ـــ نريد أن نعرف . اذا كنا نحن المسيحيين ممن يدخلون النار أم لا ؟

ألم أقل انها مفاجأة .. ولكنها مفاجأة من النوع الأمريكى النووى .!!

وكما كان السؤال أو « التفجير » مفاجئا .. كانت الاجابة أو الرد مفاجئا أيضا ..

لقد كان الرد كما يأتى :

ان الناس فى نظر الإسلام واحد من ثلاثة :

(أ) انسان لم تبلغه الدعوة أصلا وهذا من الطلقاء الذين لا يتعرضون لحساب ولا عقوبة .

(ب) انسان بلغته الدعوة . ولكن فى صورة مشوهة وغير واضحة ولم يكن هناك ما يساعده على معرفة الحقيقة ، ومثل هذا الإنسان يفوض أمره الى الله ، ولا يمكن أن نحكم عليه ــ ايمانا أو كفرا .

(جـ) انسان بلغته الدعوة واضحة ، وتوفرت لديه أسباب الاقتناع والهداية ولكنه أصر على كفره وعناده ..

ومثل هذا .. لا تختلفون معنا .. ان مصيره جهنم ....!!!

***

لقد ضجت القاعة من شدة الضحك .. وصفق الجميع اعجابا بما سمع ، وان بدت على وجه أحد القساوسة غيرة .. ولا أدرى أكانت غبرة الندم ؟ أم غبرة الخوف من المستقبل ؟ أم الغبرة من خوف آخر لم يفصح عنه الأب المبجل ....؟!

وأخيرا ..

تسأل الأخت « أ ــ ح » عن « جهنم » .. وهل تبقى الى الأبد مكاناً للجحيم كما ستبقى الجنة إلى الأبد فردوسا للنعيم ؟..

***

ان مشاعر أختنا المرهفة تتمنى لـ « جهنم » نهاية سريعة .. فهى كما يبدو رقيقة الحس شديدة العاطفة .. ، وليس منا أحد يتمنى لأحد هذا المصير الأسود فى هذا الجحيم المؤبد ...!

ولكننا تناسى الحكمة الالهية فى ايجاد هذه العقوبة الأبدية ..

فمنذ عرفت الدنيا وكان هذا العالم لم يخل جيل ولم يخل بلد ولا قطر من طغاة ، وجبابرة ومتألهين وسفاحين وقتلة حولوا حياتنا فوق هذه الأرض جحيما وسعيرا ولظى ....!

ومنذ عرف الزمان والمكان . ووجد الانسان .. والمذابح وحروب الابادة لم تتوقف لحظة .. وتاريخ البشرية ملىء بالدماء والأشلاء والجرائم التى ارتكتب على أيدى طائفة استباحت كل حرمة ، وخرجت على كل شريعة وملة ، وفرضت نفسها على الناس والحياة الهة تتحكم فى الأرواح والأرزاق ، وتحيى وتميت كما شاء لها الهوى الجامح والطغيان الصارخ .. والأفساد فى الأرض ..

و « جهنم » الآخرة أوجدها الله للذين أهدروا الانسان . والإيمان . والحياة فى « جهنم » الدنيا .. ؟ ..

وليس من العدل أن يفلت القتلة والطغاة والسفاحون من جرائمهم التى ارتكبوها ضد ابرياء لم يرتكبوا ذنبا ..

صحيح أن رحمة الله واسعة . وربنا واسع الرحمة والمغفرة ، وهو قادر على العفو فى أية لحظة . إلا أنه جل شأنه ، ولحكمة بالغة عنده لا يرضى بظلم من ظالم ضد مظلوم ضعيف .. ولهذا ترك للمظلوم وحده — حق العفو — عن ظالمه يوم الحساب الأكبر ..

وبالرغم من ذلك كله .. فالكلام عن بقاء « جهنم » وخلودها نوقش من بعض العلماء .. وفى هذا يقول الامام الأ-بر الشيخ محمود شلتوت[1] :

(١) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٣٩ طبعة الأزهر .

ان المسلم لا يشك ولا يتردد فى الإيمان بدوام نعيم الجنة دواما لا انقطاع له ..

كما لا يشك ولا يتردد فى أن المكذبين — عنادا واستكبارا — سينالهم حتما جزاء تكذيبهم الذين خرجوا به عن فطرة الإيمان ، ولكن .. هل يدوم العذاب وتدوم النار كما يدوم النعيم وتدوم الجنة ؟

يقول الإمام محمود شلتوت :

هذا بحث عميق واسع النطاق . تناوله المتقدمون من السلف ، وتعددت فيه الأقوال والآراء .

ثم يقول الشيخ شلتوت :

ليس فى القرآن نص قطعى صريح فى دوام النار . وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها ، وهذا « الخلود » يتحقق بأنهم لا يخرجون منها مادامت موجودة .

أما أنها تنقطع — أى تنتهى — أو تدوم .. فهذا شيء آخر ليس فى القرآن ما يقطع به ..

وعلى العموم . فالعقل الإنسانى بالنسبة للايمان باليوم الآخر أسير النقل الصحيح اليقينى عن كتاب الله ، أو أقوال الرسول ولا سبيل له فى أن يدرك كنه ما يكون فى تلك النشأة ..[1] »

***

ترى هل ترضيك هذه الاجابة أيتها الأخت ..؟

لقد آن الأوان أن ألملم القلم والأوراق .. وأن تختم صفحات هذا الكتاب .. وأن أعود ــ بمشيئة الله ــ الى قضية أخرى تنتظر المرافعة والحساب ..؟!

هل أقول وداعا ..؟

ولكن وداعا .. لمن ؟ اننى لم أرك أيتها الأخت بعد .. لقد قضيت قرابة شهرين أتحدث إليك كظاهرة . وقضية فقط .. وسواء أتم هذا اللقاء أم لم يتم . وكان التعارف أو لم يكن . فلسوف تبقى الأخت « أ ـ ح » ماثلة أمام العين .. كنموذج لمسلمة مخلصة وصادقة ..

مسلمة فرنسية لم ترد أن يكون ايمانها تقليدا بغير عقل ..
أو عقلا مجردا من العاطفة والحب ..
وانه لنداء توجهينه الى كل إنسان ينشد الحقيقة والحق ..
نداء لن يذهب صداه سُدًى فى أى عقل ..
وفى أى قلب ..
فى الشرق أو فى الغرب ..
والحمد لله .. من قبل . ومن بعد ..

كُتُبٌ لِلْمُؤَلِّف

ـ مجتمع بلا فوارق	طبعة أولى ـ نفذ	دار الشروق
ـ كيف أرى الله	طبعة خامسة	دار الشروق
ـ حتى لا نخدع	طبعة خامسة	دار الشروق
ـ التزوير المقدس	طبعة ثالثة	دار الشروق
ـ لماذا يخافون الإسلام	طبعة ثالثة	دار الشروق
ـ فى محكمة التاريخ	طبعة ثالثة	دار الشروق
ـ أفيقوا قبل أن تدفعوا الجزية	طبعة رابعة	مكتبة المجتمع ـ جدة
ـ رسالة الى البابا	طبعة أولى ـ نفذ	دار الأنصار
ـ مهدى السودان والأصول الفكرية لحركته ودعوته	طبعة أولى	دار المعارف

تَحْتَ الطَّبْع

● الإسلام دين الحياة ISLAM. RELIGION OF LIFE باللغة الانجليزية بالاشتراك مع الأستاذ عبد الحكيم جون ونتر البريطانى المسلم .

● الإسلام وخرافة السيف .

الفهرس

---

(١) ليس من الضرورى أن ترد الموضوعات ــ الواقعة تحت كل عنوان ــ مرتبة حسب ورودها فى صفحات هذا الكتاب .

دار نــافع للطباعة والنشر
تليفون ٩٠٠١١٨

رقم الإيداع ٧٨٨٦ / ٨٦

مؤسسة الخليج العربى

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو ـ العجوزه ـ القاهرة

تليفون ٣٤٧٢١٨٣ ـ ٣٤٧٢٢٠٦

هذا الكتاب

■ ليس هذا كتابا كغيره من الكتب، فلم يكن لكاتب، فيصل في كتابه على هذا النحو المثير للألم والعجب!

وقد جاءت فكرة تأليفه تلبية لنداء أخت مسلمة تعيش في فرنسا ..

واحدة من عشرات الألوف الذين اختاروا الإسلام بعد معاناة صعبة. مع الواقع الأليم في أوربا .. وقد دفعهم هذا الاختيار إلى التمسك بالإسلام والدفاع عن مثله الرفيعة العليا ..

وإذا كان المسلمون قد تخلفوا عن الركب وأحيط بهم من كل جانب وصوب فليس للإسلام في ذلك أي ذنب ..

وفي هذا الكتاب بيان للعلل والأمراض التي قعدت بالمسلمين عن تجاوز هذا الموقف الصعب .. !!

• • •